مقرر

الثقافة الإسلامية

١٠١سلم

العام ١٤٤٠-١٤٤١هـ

على معنى صحيح لا احتمال فيه. فمثال ما دل عليه الكتاب والسنة: لفظ الإيمان والإسلام والإحسان والظلم والعدل ونحو ذلك، ومثال ما دل عليه استعمال السلف: كلفظ توحيد وعقيدة ولفظ الفقه الأكبر ونحو ذلك، ومثال ما دل على معنى صحيح بلا احتمال: كلفظ الذات والوجود والأزلي ونحو ذلك.

الثاني: مصطلحات فاسدة: وهي تلك الألفاظ التي لم ترد في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ولا في قول السلف، أو كانت محتملة للحق والباطل لوقوع الاشتراك فيها بين المعنيين ـ الحق والباطل ـ أو كانت من ألفاظ الكتاب والسنة ولكن استعملت في غير ما سيقت له من المعاني فيهما. ومن أمثلة ذلك: لفظ الحيز والتركيب والجبر والتسيير والعرض والجوهر، ولفظ العدل إذا استعمل في معنى تخليد العصاة أصحاب الكبائر في النار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا استعمل في الخروج على أئمة العدل من المسلمين.

وإذا عرف معنى المصطلح العقدي وأنواعه فلنشرع في بيان معاني بعض المصطلحات العقدية. فنقول وبالله التوفيق ونسأله الهداية لأقوم طريق.

التعريف ببعض المصطلحات العقدية:

أولاً ـ تعريف العقيدة[1]:

مرت كلمة عقيدة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي دور الموسوعية في المعنى وعدم الاختصاص، وهو المعنى اللغوي، فهي في اللغة تطلق ويراد بها:

١ ـ العزم المؤكد.

---

(١) قارن لوامع الأنوار السنية (١/ ١٤٧ ـ ١٥٠).

٢ ـ الجمع.

٣ ـ النية.

٤ ـ التوثيق للعقود.

٥ ـ ما يدين به الإنسان سواء كان حقاً أو باطلاً.

المرحلة الثانية: وهي دور الفعل القلبي، وفيه تبرز العقيدة كمعنى يقوم بقلب العبد، وهو أخص من المرحلة قبله، ويعبر عنه بالمعنى المصدري وهو بهذا الاعتبار: «الإيمان الذي لا يحتمل النقيض» وهو والحالة هذه يعتبر معنى شرعيًا.

قوله «الإيمان» أي: التصديق.

وقوله: «لا يحتمل النقيض» أي: لا يوجد في القلب سواه بحيث لا يجوز إمكان فرض آخر غير المؤمن به، وهو بذلك يخرج كل فرض قدر له نقيض كالشك والظن والوهم والجهل والخطأ والنسيان. وهذا المعنى هو الذي كان موجوداً في العصور الثلاثة ـ الصحابة والتابعين وتابعيهم ـ من الجهة التطبيقية، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

المرحلة الثالثة: وهي الدور الذي نضجت فيه العقيدة، وأصبحت علماً ولقباً على قضايا معينة، وهو دور الاستقرار وهو المعبر عنه «العلم بالأحكام الشرعية العقدية المكتسب من الأدلة اليقينية ورد الشبهات وقوادح الأدلة الخلافية».

فالمراد بالعلم: هو إدراك الشيء على ما هو عليه. ولا يكون ذلك إلا بتصور مفرداته والتصديق بمركباته (نسبة) كما هي في واقع الأمر حقيقة معلومة من الدليل الشرعي اليقيني.

والمراد بالأحكام: ما تدل عليه النصوص من قواعد عقدية ومبادىء كلية يقينية. نسبت للشرع لإخراج ما ليس شرعياً، وهكذا

الأمر بالنسبة للعقدية لإخراج ما عداها.

والأدلة: جمع دليل وهو المرشد للطريق لغة، واصطلاحاً: هو ما يمكن بصحيح النظر فيه التوصل إلى معلوم خبري.

ويراد بصحيح النظر: قواعده ومبادئه الكلية العاصمة من الخطأ في النظر، والنظر هو التأمل في الدليل سواء كان دليلاً حسياً أو عقلياً أو نقلياً.

والمراد بالمعلوم الخبري: هو نسبة المفردات بعضها إلى بعض «الجملة» وذلك بالتوصل من خلال النظر إلى نسبة مكونة من مفردات مفهومة المعنى، قد حمل بعضها على بعض؛ لإفادة معنى يراد الدلالة عليه بألفاظ الدليل، سواء وافق ظاهر اللفظ أو خالفه إذ المقصود هو التوصل لما يراد من الدليل.

وأضيفت الأدلة إلى اليقينية؛ لأن قضايا العقيدة يقينية ولا يمكن أن يتوصل إليها إلا بالدليل اليقيني.

ودفع الشبهات أي: ردها بما يدل على إفادة معنى يراد الدلالة عليه بألفاظ الدليل، سواء وافق ظاهر اللفظ أو خالفه إذ المقصود هو التوصل لما يراد من الدليل.

وأضيفت الأدلة إلى اليقينية؛ لأن قضايا العقيدة يقينية ولا يمكن أن يتوصل إليها إلا بالدليل اليقيني.

ودفع الشبهات أي: ردها بما يدل على بطلانها من حسن أو عقل أو نقل أو فطرة.

والشبهات: جمع شبهة مشتقة من الشبه؛ لأن كلاً من الشيئين أشبه الآخر بحيث لا يمكن التمييز بينهما فيظن بذلك أن أحدهما هو الآخر وليس كذلك.

والقوادح: جمع قادح، وهو المفسد للدليل سواء كان عقلياً أو نقلياً أو دلالته على المطلوب.

ثانياً ـ تعريف التوحيد[1]:

وقد مرت كلمة توحيد بنفس الأدوار التي مرت بها كلمة عقيدة، فهي في الدور اللغوي مشتقة من وحد يوحد توحيداً فهي مصدر للفعل وحد بمعنى جعله واحداً، ثم نقل عن هذا المعنى إلى معنى الفرد المتميز عن غيره؛ لأن كون الله واحداً ليس بجعل جاعل، وعلى هذا فالواحد هو المنفرد بخصائصه عما سواه. ومن هذا المعنى قولهم: واحد زمانه أي: فرداً فيه إما علماً أو عقلاً أو كرماً ونحو ذلك، وفي الدور المصدري أو باعتباره فعلاً من أفعال القلب: هو إفراد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات والأفعال. وفي الدور الأخير وهو دور الاستقلال صارت فيه كلمة التوحيد تدل على العلم المسمى بها وهي بهذا الاعتبار:

«العلم الذي يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية».

فالعلم: الإدراك الجازم للشيء كما هو في حقيقة الأمر وواقعه.

والاقتدار: هو تحصيل الملكة التي يتمكن بها الناظر في الدليل اليقيني من استفادة الأحكام التوحيدية منه.

الفرق بين العقيدة والتوحيد:

١ ـ يجتمعان في أن كلاً منهما يثبت الحق بدليله.

٢ ـ أن العقيدة أعم من جهة موضوعها من التوحيد. فإن كان التوحيد يقرر الحق بدليله فقط، فإن العقيدة تقرره، وترد الشبهات، وتبين ما يقدح في الأدلة الخلافية، وتناقش الديانات والفرق.

٣ ـ أن الإيمان بالكتب والرسل والملائكة واليوم الآخر والإيمان بالقدر تدخل في إطار العقيدة بالمطابقة، وفي التوحيد بالاستلزام.

---

(١) قارن لوامع الأنوار السنية (١/ ١٤٧ ـ ١٥٠).

العقيـدة الإسـلامية

العقيدة الإسلامية هي التي بعث الله بها رسله وأنزل به كتبه وأوجبها على جميع خلقه - الجن والانس كما قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ومـا أريد أن يطعمون﴾(الذاريات/ آية ٥٦) وقال تعالى : ﴿وقضـى ربـك ألاّ تعبدوا إلا إياه﴾(الاسراء/ آية ٢٣) وقال تعالى : ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾(النحل / آية ٣٦) . فكل الرسل جاءوا بالدعوة إلى هذه العقيدة، وكل الكتب الإلهية نزلت لبيانها وبيان ما يبطلها ويناقضها أو ينقصها وكل المكلفين من الخلق أمروا بها، وان ما كان هذا شأنه، وأهميته لجدير بالعناية والبحث والتعرف عليه قبل كل شيء خصوصا وأن هذه العقيدة تتوقف عليها سعادة البشرية فى الدنيا والآخرة، قال تعالى : ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾ (البقرة / آية ٢٥٦) .

ومعنى ذلك أن من أفلت يده من هذه العقيدة فإنه يكون متمسكا بالأوهام والباطل، فماذا بعـد الحق إلا الضـلال ﴿ذلـك بأن الله هو الحق وأن مايـدعـون من دونـه هو الباطل﴾(الحج / آية ٦٢) وبالتالى يكون مصيره إلى النار وبئس القرار .

والعقيدة معناها : مايصدقه العبد ويدين به، فإن كانت هذه العقيدة موافقة لما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه فهي عقيدة صحيحة سليمة تحصل بها النجاة من عذاب الله والسعادة فى الدنيا والآخرة وإن كانت هذه العقيدة مخالفة لما أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه فهي عقيدة توجب لأصحابها العذاب والشقاء في الدنيا والآخرة .

والعقيدة السليمـة الصحيحـة تعصم الدم والمال في الدنيا وتحرم الاعتداء عليهما وانتهاكهما بغير حق، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها) وقال صلى الله عليه وسلم : (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل) رواه مسلم .

وهي أيضا تنجى من عذاب الله يوم القيامة فقد روى مسلم عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من لقى الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار) وفي الصحيحين من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه: (فإن الله حرم على النار من قال لا اله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله) والعقيدة الصحيحة السليمة يكفر الله بها الخطايا فقد روى الترمذى وحسنه عن أنس رضى الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تعالى يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة) وقراب الأرض ملؤها أو ما يقارب ملأها، فشرط في حصول هذه المغفرة سلامة العقيدة من الشرك كثيره وقليله صغيره وكبيره، ومن كان كذلك فهو صاحب القلب السليم الذى قال الله فيه: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء / آية ٨٨ - ٨٩).

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في معنى حديث عتبان: ويعفى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبوه بالشرك مالا يعفى لمن ليس كذلك فلو لقى الموحد الذى لم يشرك بالله شيئا البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب لأنه يتضمن من محبة الله واجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض فالنجاسة عارضة والدافع لها قوى. . . . انتهى.

والعقيدة السليمة تقبل معها الأعمال وتنفع صاحبها، قال تعالى: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾. وعلى العكس من ذلك فالعقيدة الفاسدة تحبط جميع الاعمال، قال تعالى: ﴿ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾(الزمر/ آية ٦٥) وقال تعالى: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾. (الانعام/ آية ٨٨) والعقيدة الفاسدة بالشرك تحرم من الجنة والمغفرة، وتوجب العذاب والخلود فى النار، قال الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. (النساء/ آية ٤٨) وقال تعالى: ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾(المائدة/ آية ٧٢).

والعقيدة الفاسدة تهدر الدم وتبيح المال الذى يملكه صاحب تلك العقيدة قال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾(الانفال/ آية ٣٩) وقال تعالى ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد﴾(التوبة/ آية ٥) .

وبالتالى فالعقيدة السليمة لها آثار طيبة في القلوب والسلوك الاجتماعى والنظام العمرانى ، فهناك فريقان كل منهما بنى مسجدا في عهد النبى صلى الله عليه وسلم فريق بنى مسجده بنية صالحة وعقيدة خالصة لله عز وجل ، وفريق بنى مسجده لهدف سيء وعقيدة فاسدة ، فأمر الله نبيه أن يصلى في المسجد الذى أسس على التقوى ، ونهاه أن يصلى فى المسجد الذى أسس على الكفر والمقاصد السيئة ، قال الله تعالى : ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ، أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ (التوبة /آية ١٠٧-١٠٩) .

وجوب معرفة العقيدة الإسلامية

اعلموا وفقنى الله واياكم أنه يجب على كل مسلم أن يتعلم العقيدة الإسلامية ليعرف معناها وما تقوم عليه ، ثم يعرف مايضادها ويبطلها أو ينقصها من الشرك الأكبر والأصغر ـ قال الله تعالى : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾(محمد / آية ١٩) .

قال الامام البخارى رحمه الله : باب العلم قبل القول والعمل واستشهد بهذه الآية الكريمة ، قال الحافظ ابن حجر ، قال ابن المنير: أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به ، فهو متقدم عليهما لأنه مصحح للنية المصححة للعمل . . . انتهى .

ومن هنا اتجهت همم أهل العلم إلى تعلم أحكام العقيدة وتعليمها واعتبروا ذلك من أوليات العلوم وألفوا فيها مؤلفات خاصة فصلوا فيها أحكامها وما يجب فيها وبينوا ما يفسدها أو ينقصها من الشركيات والخرافات والبدع، وهذا هو معنى لا إله إلا الله، فليست مجرد كلمة تقال باللسان، بل لها مدلول ومعنى ومقتضى تجب معرفتها كلها والعمل بها ظاهرا وباطنا، ولها مناقضات ومنقصات، ولا يتضح ذلك إلا بالتعلم، ولهذا يجب أن يكون لعلم العقيدة الصدارة بين المقررات الدراسية في مختلف المراحل، وأن تعطى من الحصص اليومية العدد الكافى، ويختار لها المدرسون الأكفياء، وأن يركز عليها في النجاح والرسوب، خلاف ما عليه غالب واقع الدراسات المنهجية اليوم، فإن علم العقيدة في الغالب لا يحظى بالاهتمام في تلك الدراسات مما يخشى من ورائه أن ينشأ جيل يجهل العقيدة الصحيحة فيستسيغ الشركيات والبدع والخرافات ويعتبرها من العقيدة، لأنه وجد الناس عليها ولم يعرف بطلانها .

ومن هنا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، (يوشك أن تنقض عرى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية) هذا ويجب اختيار الكتب الصحيحة السليمة التى ألفت على مذهب السلف الصالح وأهل السنة والجماعة والمطابقة للكتاب والسنة فتقرر على الطلاب، وتستبعد الكتب المخالفة لمنهج السلف ككتب الاشاعرة والمعتزلة والجهمية، وسائر الفرق الضالة عن منهج السلف .

وإلى جانب الدراسة النظامية يجب أن يكون هناك دروس تعقد في المساجد تدرس فيها العقيدة السلفية بالدرجة الأولى، وتقرأ فيها المتون والشروح ليستفيد منها الطلاب وكل من حضر ويكون هناك مختصرات مبسطة تلقى للعامة، وبذلك تنتشر العقيدة الإسلامية، إلى جانب ما يذاع فى البرامج الدينية بواسطة الاذاعة، ويكون هناك برنامج مستمر تذاع من خلاله أحكام العقيدة الإسلامية، ثم يجب أن يكون هناك اهتمام خاص بالعقيدة من جانب الأفراد فيكون للمسلم مطالعات في كتب العقيدة، والتعرف على ما ألف فيها على منهج السلف، وما ألف على منهج المخالفين لهم حتى يكون المسلم على بصيرة من أمره وحتى يستطيع رد الشبه الموجهة إلى عقيدة أهل السنة .

أيها المسلم . .

انك حينما تتأمل القرآن الكريم تجد فيه كثيراً من الآيات والسور تهتم بأمر العقيدة، بل ان السور المكية تكاد تكون مختصة ببيان العقيدة الإسلامية ورد الشبهات الموجهة اليها، خذ مثلا سورة الفاتحة قال الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله : اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها ومدارها عليها وهى :

«الله والرب والرحمن» وبنيت السورة على الالهية، والربوبية والرحمة (فإياك نعبد) مبنى على الإلهية و(اياك نستعين) على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم يتعلق بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة فهو المحمود في الهيته وربوبيته ورحمته والثناء والحمد كمالان لجده، وتضمنت اثبات المعاد، وجزاء العباد، بأعمالهم حسنها وسيئها وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله (مالك يوم الدين) وتضمنت اثبات النبوات من جهات عديدة، ثم بينها رحمه الله بكلام مطول مفيد إلى أن قال، فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، (فالحمد لله رب العالمين توحيد، الرحمن الرحيم توحيد، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم) توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) الذين فارقوا التوحيد.

وقال : وغالب سور القرآن متضمنة «لنوعى التوحيد» فإن القرآن اما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمى الخبرى. واما دعوة إلى عبادته وتوحيده وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الارادى الطلبى، واما أمر ونهى والزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، واما خبر عن اكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة وهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما فعل بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد. . . انتهى .

التعريف بلفظ المصطلحات العقدية

نرى أنه من المهم قبل البدء في تحليل بعض المصطلحات العقدية أن نقوم بتعريف المصطلحات العقدية؛ توطئة للدخول إلى ما سنتناوله بالدراسة منها فنقول:

المصطلحات: جمع مصطلح وهو ما تعارف عليه أهل علم معين من الألفاظ والتراكيب في التعبير عن حقائق ذلك العلم، وعلى هذا فكل علم له مصطلحاته الخاصة به والتي تعد جزءاً من منهجيته. ففي إطار الشرعيات نجد أن للفقهاء من المصطلحات ما يعبرون به عن حقائقهم الفقهية، والأمر نفسه تجده بالنسبة لعلماء أصول الفقه وعلماء التفسير وأصوله ونحو ذلك.

وعليه؛ فلعلماء العقيدة الإسلامية أيضاً من المصطلحات ما يعبرون به عن حقيقة العقائد الإسلامية، فالمصطلح العقدي إذن هو: ما تعارف عليه علماء العقيدة في التعبير عن مقاصدهم العقدية، وهذه المصطلحات العقدية على قسمين[1]:

الأول: مصطلحات صحيحة: وهي ما جاء الكتاب والسنة وأقوال السلف باستعمالها دالة على الحقائق العقدية، أو لم ترد لكنها دلت

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (١/٢٠٨، ٢٧٩).

ومع اهتمام القرآن بشأن العقيدة الإسلامية فإن أكثر الذين يقرءونه لا يفهمون العقيدة فهما صحيحا فصاروا يخلطون ويغلطون فيها لأنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولا يقرءون القرآن بتدبر فلا حول ولا قوة إلا بالله .

الدعوة إلى العقيدة الإسلامية

يجب على المسلم بعد ما يمن الله عليه بمعرفة هذه العقيدة والتمسك بها أن يدعو الناس إليها لاخراجهم بها من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم، الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ (البقرة/آية ٢٥٦-٢٥٧) .

والدعوة إلى العقيدة الإسلامية هي فاتحة دعوة الرسل جميعا فلم يكونوا يبدءون بشيء قبلها كما قال الله تعالى عنهم : ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾(النحل/ آية ٣٦) . وكل رسول يقول لقومه أول مايدعوهم : ﴿**اعبدوا الله ما لكم من إله غيره**﴾(هود/ آية ٥٠) . كما قالها نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر الرسل عليهم صلوات الله وسلامه اجمعين .

فيجب على من عرف هذه العقيدة وعمل بها أن لايقتصر على نفسه بل يدعو الناس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم، وإن الدعوة إلى هذه العقيدة هو الأساس والمنطلق، فلا يدعى إلى شيء قبلها من فعل الواجبات وترك المحرمات حتى تقوم هذه العقيدة وتتحقق لأنها هي الأساس المصحح لجميع الأعمال . وبدونها لا تصح الأعمال ولا تقبل ولا يثاب عليها، ومن المعلوم بداهة أن أى بناء لا يقوم ولا يستقيم إلا بعد إقامة أساسه، ولهذا كان الرسل يهتمون بها قبل كل شيء، وكان النبى صلى الله عليه وسلم عندما يبعث الدعاة يوصيهم بالبداءة بالدعوة إلى تصحيح العقيدة، فعن ابن عباس رضى الله عنهما . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذا إلى اليمن قال له انك تأتى قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وفي رواية - إلى أن يوحدوا الله - فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن

مصـــادر العقيـــدة الإسلاميـــة

المراد بمصادر العقيدة هي الطرق التي تستفاد وتستنبط من خلالها حقائق العقيدة الإسلامية، وهذه الطرق هي التي سلكها السلف الصالح في إثبات العقائد الإلهية، ونحن سنقوم بدراسة ثلاثة من هذه المصادر، وهي: الكتاب، السنة، العقل الصحيح.

أولاً: الكتـــاب

ونقصد بالكتاب: القرآن الكريم حيث سماه الله كتاباً في قوله جل شأنه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾، وقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾، والقرآن الكريم هو حبل الله المتين وسراجه المنير الذي أنزله على قلب نبيه الكريم ﷺ بلسان عربي مبين، المعجز بلفظه ومعناه، وجميع تراكيبه وأساليبه، الذي تحدى الله به العرب بأن يأتوا بمثله أو بسورة منه، كلام الله بحروفه وصوته، غير مخلوق، منه بدأ تكلماً وإليه يعود صفة أو من الصدور والسطور في آخر الزمان.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يسر هذا الكتاب للفهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ فليس في لفظه ومعناه أي تعقيد لفظي أو معنوي يجعل عباراته غير مفهومة ولا تراكيبه غير معروفة، ولم يأت بما لا تقبله العقول المستقيمة والأفكار المستنيرة، فلا خلل في أساليبه، ولا غرابة في تعابيره بحيث ينفر منها صاحب الذوق السليم، يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ ومن هنا كان تدبره ميسوراً ومعرفة مقاصده مقدورة لكل البشر لا يختص أحد دون أحد بإدراك معانيه. بل لكل أحد حظ من فهمه، وإدراك مراد الله منه أو التأثر بعبره ومواعظه ووعده ووعيده، ومن هنا أمرنا بتدبره كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ۝٢٤﴾ ومعلوم أن ما لم يمكن فهمه

وإدراك مقصده لا يؤمر بتدبره لأن ذلك من التكليف بما لا يطاق، والله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. بل وذم من لم يفهمه وأوجب له العقوبة وجعله أقل حالاً من البهائم والعجماوات فقال جل شأنه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ الآية. فليس في ألفاظه شيء من الأحاجي والألغاز، ولا شيء من قوالب علوم الكلام حتى تحتاج إلى فك مصطلحاتها، ومعرفة طرق نظم أقيستها. ويرجع عدم فهم بعض الناس لبعض ألفاظه، إما لقصوره في معرفة مراد الشارع، أو دلالة الألفاظ في اللغة، وهو عيب وقصور في فهم الناظر في آي القرآن الكريم فليس فيها أدنى غموض لمن أدرك أدوات الفهم العامة؛ ولذا فقد وصف الله كتابه كله بالإحكام العام المتضمن نفي الخلل في نظمه أو معناه، والتشابه العام المتضمن صدقه وعدم تعارض آياته وتخالفها كما قال جل شأنه: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ وقال عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾.

والقرآن الكريم هو المصدر الأول في الشريعة أصولها وفروعها، وكل أصل بعده فهو راجع إليه ومعتمد عليه، وهو أفضل الوحي المنزل على وجه الإطلاق، وكل ما تضمنه فهو حق وصدق كما قال جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ الذي تعهد الله بحفظه دون غيره من الكتب السماوية الأخرى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ فهو محفوظ في لفظه ومعناه، ومن حفظه أنه نقل إلينا نقلاً متواتراً يفيد القطع بوصوله إلينا سالماً من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.

وكما قامت الدواعي على نقل لفظه فكذلك قامت على نقل معانيه والعناية بمقاصده. فدونك تلك العلوم القرآنية الضخمة التي تدل على مدى العناية بالقرآن الكريم، فعلم التفسير وعلم القراءات وعلم التجويد وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم الأشباه والنظائر القرآنية وعلم غريب القرآن الكريم قد نقل لنا بلفظه ومعناه نقلاً لا يحتمل شكاً ولا ريباً في كون

الموجود بين أيدينا هو عينه الذي أنزل على رسول الله ﷺ كما قال جل شأنه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

ومن هذا المنطلق فقد ذكر علماء الأمة عدداً من الأصول المرعية والقواعد العامة التي تعصم الذهن من الخطأ في فهم كتاب الله ومن أهمها في نظرنا:

(أ) الرجوع في تفسير القرآن إلى القرآن نفسه، فما أشكل معناه في موضع يوجد بيانه في موضع آخر، وهورجوع لصاحب الكلام في بيان مراده من كلامه، وهو أدرى بما يخبر به وأعلم بما أراده من لفظه من أغراض ومقاصد ومعانٍ.

فإذا لم نجد البيان في القرآن الكريم رجعنا إلى سنة نبينا محمد ﷺ؛ لأنه المبلغ عن ربه، وهو أعلم بمقاصد كتاب ربه ممن سواه، فهو لا ينطق عن الهوى فيما أخبر به وبلغه، ولذا كان الرجوع إلى بيانه أولى من بيان غيره كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ وتعليمهم للكتاب هو إظهار معانيه وأحكامه ومقاصده ومراميه، فإذا لم نجد ما يبين معنى الآية من سنة النبي ﷺ المصطفى رجعنا إلى تفسير أصحابه رضي الله عنه، وهم من هم إيماناً وعملاً وحرصاً على فهم الكتاب الكريم، وإدراك ما أراده الله منهم، مع حضورهم للوحي وهو ينزل على رسوله ﷺ، يشاهدون تنزيله، ويعلمون أسبابه، ويحضرون وقائع أحواله، وهو يعالج مشاكلهم الواقعية، ويجيب على أسئلتهم الشرعية، ويواكب حياتهم العامة والخاصة، وهم مع ذلك يسألون الرسول ﷺ عما أشكل عليهم من معانيه وأحكامه، كما أنهم من أعلم الناس بلغة القرآن، فهم الذين أنزل بلغتهم وكلامهم مع كمال ما عرف عنهم من حرص على تدبره مع دخولهم في أمر الله بالتدبر أولاً قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾ فإذا لم نجد بيان

المعنى في أقوال الصحابة رضي الله عنهم رجعنا إلى أقوال التابعين، فهم تلاميذ الصحابة رضي الله عنهم، ونقلة علمهم والمقتدون بهم في العلم والإيمان والعمل، الأمر الذي يدل على أن الركون إلى تفسيرهم أولى من الرجوع إلى تفسير غيرهم ممن بعدهم مع تزكية الرسول لهم، ووصفه لهم بالخيرية في قوله: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم»، فإن لم نجد التفسير فيما تقدم رجعنا إلى لغة العرب التي أنزل بها القرآن الكريم فنستفيد معانيه من استعمالاتها وطرق التعبير بها، كما قال جل شأنه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾. ومما يجدر بنا هنا أن نقول: إن الاهتمام باللغة العربية وتعلمها من الواجبات الشرعية؛ لترتب فهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عليه.

(ب) يحرم تفسير القرآن الكريم بالرأي المجرد؛ لأن ذلك ميل إلى الهوى، وتفسير لكلام الله بغير ما أراده من كلامه، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، وتوعد من أقدم عليه بالنار، فقال عليه الصلاة والسلام: «من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» رواهما الترمذي.

(ج) ألا يحمل تفسير الآيات القرآن على مذهب معين. وذلك بأن يتبنى المفسر مذهباً معيناً في الاعتقاد، ثم يحمل الآيات القرآنية عليه، مع أنها لا تدل عليه لا من قريب ولا من بعيد. والواجب أن يجعل القرآن الكريم إماماً يبني عليه ويرجع إليه، فهو المصدر الرئيسي لكل جزئية من جزئيات العقائد الإسلامية، فلا يجوز أن يجعل أي مذهب هو الأساس في تفسير القرآن الكريم واستفادة أحكامه منه.

(د) تقدم الحقائق الشرعية على الحقائق اللغوية فإن العلم بالقرآن الكريم ينبني على إدراك الألفاظ القرآنية التي حددت معانيها الشرعية، وعلى المعاني اللغوية للألفاظ القرآنية فيجب حمل ما استعمل في معناه الشرعي على معناه الشرعي، وما استعمل في معناه اللغوي على معناه

اللغوي، وما احتمل المعنيين حمل على المعنى الشرعي؛ لأنه الأصل، فإن المعنى الشرعي أخص في الدلالة على مراد الشارع من المعنى اللغوي.

(هـ) يبنى فهم المشكل من الألفاظ القرآنية على الألفاظ الواضحة، فما أشكل في مقام حمل على المقامات الواضحة في كتاب الله، فهو من قبيل إيضاح كلام المتكلم بكلامه؛ ولذا إذا ورد ما ظاهره خلاف اللفظ المستعمل في المعاني القرآنية المتكررة والمتكاثرة حمل ذلك اللفظ الوارد على المعنى السائد في كتاب الله؛ لأن الظاهر أن الله أراد به ذلك المعنى، لأن ألفاظ القرآن لا تتناقض ولا تتعارض، بل هي متوافقة متصادقة، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

(و) إن الصحيح من أقوال أهل العلم أن الألفاظ القرآنية لا مجاز فيها، بل هي حقائق موضوعة لمعان مخصوصة، ولا يخرجها عن كونها حقيقة تعدد أساليب اللغة في التعبير عن المعاني المختلفة بالألفاظ المختلفة، وذلك للوجوه التالية:

الوجه الأول: أنه لا يوجد نقل عن العرب بأن كلامهم منقسم إلى حقيقة ومجاز، وما كان ذلك فطريقه السماع، والعرب لم يسمع عنهم فلا يصح هذا التقسيم.

الوجه الثاني: أن العرب تكلمت بكلامها على أنه حقيقة، وأن تعدد الأساليب لا يخرجها عن ذلك.

الوجه الثالث: أن من أبرز علامات المجاز عند القائلين به أنه ينفى، وعلى هذا فما من كلمة إلا ويمكن أن تنفى؛ لأنه لا يوجد فارق واضح بين الكلمات إذ لا سماع يحدد المجاز من الحقيقة، وإذا طرد هذا فما من لفظ مستعمل إلا ويمكن أن يدعى فيه أنه مجاز فينفى إذ لا يحدد كون اللفظ مجازاً أو حقيقة إلا الاستعمال، وهو عندهم قياسي.

الوجه الرابع: أن مدعي المجاز في آيات القرآن يلزمه أربعة أمور هي:

١ ـ تعيين المعنى الحقيقي.

٢ ـ تعيين المعنى المجازي.

٣ ـ بيان العلاقة بين المعنى الحقيقي والمجازي.

٤ ـ بيان أن اللفظ المعين يراد به الحقيقة أو المجاز.

وكل هذه الفروض لا تثبت إلا بالسماع، ولا سماع، فلا مجاز في آيات القرآن الكريم.

وهذا القول هو الراجح عند المحققين من أهل العلم.

والقول الثاني إثبات المجاز في القرآن الكريم، وعليه فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل يصح. أما ما دامت الحقيقة محتملة فالواجب الحمل عليها، ولا يقدم الحمل على المجاز إلا إذا كان أشهر من الحقيقة في الإطلاق العربي، وهو في باب العقائد معدوم.

وبعد هذا فإن القرآن الكريم قد تواتر نقله عن العدول الضابطين، وعامة ما ورد فيه من قضايا العقائد هي نص في معناها ودلالتها، إذ لا يتصور أن يترك الله جل جلاله أمر العقائد الدينية غير واضح مع أنها أصل الدين ومبناه، وأول الواجبات على العباد ـ مع تفصيله وتبيينه لأحكام الفروع ـ إذ منزلة العقيدة من الدين منزلة الرأس من الجسد، وقد نهج القرآن الكريم في إيضاح العقائد طريقين:

الطريق الأول: سياق الآيات القرآنية في مدلولاتها العقدية سياق الأخبار المسلمة التي بلغت من وضوح الدلالة ما لا يتصور معه إنكار أحد لها.

الطريق الثاني: سياق الآيات القرآنية جارية على موازين العقول الصحيحة كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

والمعنى أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدت السموات والأرض، لكنهما لم تفسدا فالنتيجة ليس فيهما آلهة إلا الله، وعلى هذا فقد جمع القرآن الكريم في دلالته على العقائد الإلهية بين الخبر وموازين العقل الصحيح، خلافاً لما يدعيه بعض المتكلمين من أن دلالة القرآن دلالة خبرية محضة خالصة. وليس أدل على بطلان هذا القول من مجيء نوعي الدلالة العقلية والخبرية في نصوص القرآن الكريم إلا أن الدلالة العقلية القرآنية أكمل وأتم من دلالة الأدلة العقلية المنطقية، كما سنوضحه فيما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ونحن عندما نتكلم عن القرآن الكريم هنا فإنما نريد إثبات حجيته في باب العقيدة، وأن آياته العقدية مفيدة للعلم اليقيني، من جهة السند، والقطع بمدلولات الآيات من جهة المعاني، فدلالته أكمل الدلالات وأتمها وأعظمها إيصالاً إلى المطلوب، كيف لا وهو كلام صاحب الشريعة في بيان ما أراده من عباده.

ثانياً: السنة المطهرة

وهي الوحي الثاني كما صح الحديث بذلك عن المصطفى ﷺ حيث قال: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» والمراد بقوله: «ومثله معه» السنة النبوية، وقد فسر قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ بالسنة، حيث قال الإمام الشافعي رحمة الله عليه: كل الحكمة في القرآن السنة. وبذلك صرح عدد من الأئمة سواه، فهي أي: السنة، في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، وهي وحي مستقل بالبيان له نفس المكانة من جهة وجوب امتثال ما جاءت به، كما قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وقال جل جلاله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وقال عليه الصلاة والسلام: «لا ألفين أحدكم قاعداً على أريكته يأتيه الأمر من أمري يقول ما وجدنا في كتاب الله أخذناه».

والسنة: هي بيان القرآن وتفسيره والكاشفة عن أسراره وذخائره وأحكامه فهي المفسرة لما أجمل فيه، والمبينة لما أبهم من آياته، وكل ما جاء عن الرسول في سنته فهو من تبليغ القرآن، فهي حق وصدق، بل هي أفصح الكلام بعد كلام الله، لأن ذلك من لوازم التبليغ، فإن العيي لا يكون كامل البيان، وقد بين الرسول ﷺ كل ما أوحي إليه

حتى أكمل الله هذا الدين فلم يبق فيه ما هو غامض أو خفي مما يحتاج إليه الناس في دنياهم أو أخراهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وقد شهد بذلك أصحاب الرسول ﷺ في حجة الوداع؛ أشهدهم رسول الله ﷺ وأشهد الله عليهم، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: ما ترك رسول الله ﷺ طائراً يطير في السماء إلا وذكر لنا منه علماً. ولذا كان ضياع شيء من السنة في القبح كدعوى ضياع شيء من القرآن حيث قامت الدواعي على حفظ السنة من حال الأمة، فإن الناظر في حال هذه الأمة المحمدية يعلم علم اليقين حفظها لسنة نبيها، وكمال عنايتها بذلك. ويمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

أولاً: بأن النبي ﷺ قد أمر أصحابه بتبليغ سنته فقال عليه الصلاة والسلام: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها مثل ما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع».

ثانياً: حرص الصحابة على تبليغ السنة وما عرف عنهم من الاهتمام بطلابها.

ثالثاً: حرص الصحابة على التثبت في قبول السنة حتى إن بعض الصحابة لم يقبل من السنة إلا ما قام عليها شاهدا عدل.

رابعاً: حرص علماء الأمة في سائر عصورها على جمع السنة والتثبت في قبولها.

خامساً: التثبت في أحوال نقلة الحديث ومعرفة أحوالها.

سادساً: تدوين علم الجرح والتعديل.

سابعاً: التأليف والجمع لعلل الحديث والكلام عليها.

ثامناً: التأليف لتمييز الحديث المقبول من المردود.

تاسعاً: تدوين القواعد التي يعرف بها ما يقبل أو يرد من الحديث.

الآخر، والقرآن والسنة نظيران من جهة أنهما وحي، فما جاز من الاحتجاج بأحدهما جاز على الآخر، والقرآن حجة في علم العقائد فكذلك السنة بأنواعها.

وأيضاً فإن الظن أخو الكذب، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فيحرم الأخذ به. فإذا قلنا إن خبر الواحد يفيد الظن فهو لا يغني من الحق شيئاً. وهو ممنوع، لأن الظن ليس كله لا يغني من الحق شيئاً وهو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ فدل على أن ثم ظن لا أثم فيه وبالتالي هو من الحق كما أن الظن يطلق على اليقين كما في قوله سبحانه ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ وقوله سبحانه ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ وخبر الواحد من الظن الذي هو بمعنى اليقين ولازم ذلك إثبات الضد، وهو إفادة خبر الواحد لليقين، وهو المطلوب إثباته.

وإذا تبين ذلك ظهر لنا رجحان مذهب السلف. وبناءً على هذا الاختلاف اختلفوا في نصر من خالف خبر الواحد، فقال جمهور المتكلمين: لا يكفر من لم يؤمن بمدلول خبر الواحد. وقال جمهور السلف: لا يكفر لكنه فاسق وهو الراجح للخلاف فيه. وقال بعض السلف: يكفر بإنكار مدلول أحاديث الصفات والمعراج خاصة. وقال بعضهم: يكفر مطلقاً.

ومما تقدم يتبين لنا أن السنة بجميع أنواعها حجة في باب العقائد بما فيها خبر الواحد، لا سيما إذا كان مما تلقي من الأمة بالقبول، كأحاديث الصحيحين، أو قامت عليه القرائن من مساندة الحس أو العقل الصحيح، ونحوها، مع أن إفادة الخبر لليقين ليست مقتصرة على ثبوته بالنقل، بل إن النفس لتجد فيها ما يلزمها اليقين بمدلول الخبر حتى ولو لم يكن صحيحاً نقلاً؛ لأن كون النفس عالمة ليست مترتبة على النقل المحض، فإن الإنسان يجد نفسه جازمة بمدلول الخبر بناء على ثقته بالمخبر أو الخبر. فكم جزمت بصدق خبر الواحد لمعرفتها بالمخبر وعدالته، أو لكون مضمون الخبر مما لا يمكن تكذيبه لبداهته وأوليته، أو لدلالة الفطرة عليه، وهذا قد يرقى بالخبر إلى

درجة يفيد بها القطع، كما أن إفادة الخبر لليقين ليس مترتباً إلا على كون النفس عالمة بمدلول الخبر، وهو إحساس نفسي يقوم بالنفس لا تستطيع رده. هذا، ونصوص السنة دالة على المطلوب قطعاً فهو عليه الصلاة والسلام خير من نطق بالضاد وتكلم بالعربية وقد أوتي جوامع الكلم مع أمره بالتبليغ، ولا يتصور عقلاً ولا شرعاً أن يترك أمر الاعتقاد مشتبهاً، وأهم أمور الدين وأعظمها مع تفصيله لأمر الفروع، فلا بد أن يكون بينهما أكمل بيان، وأوضحهما أكمل إيضاح، لأن عدم الإيضاح إما للجهل وإما لعدم الفصاحة أو عدم القدرة، والرسول ﷺ قد أوتي أكمل ما يكون من هذه الصفات، وهي العلم والفصاحة والقدرة على البيان، بل كيف يتصور علم أحد بالعقائد بعد القول بعدم إمكانه بالنسبة للرسول ﷺ، إذ سواه أولى بعدم العلم منه؛ لأنه طريق العلم بها، وإذا انقطع لم يكن لأحد علم بها[1].

اختلاف الناس في مدلولات نصوص الكتاب والسنة

هذا، وقد اختلف الناس بعد زمن السلف الصالح في مدلولات نصوص الكتاب والسنة على مواقف هي[2]:

أولاً: أهل التخييل: هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه. فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول من الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع الجمهور به، لا أنه بين به الحق ولاهدى به الخلق ولا أوضح به الحقائق، ثم هم على قسمين:

منهم من يقول: إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه، ويقولون: إن من المتفلسفة الإلهية من علمها، وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم أولياء من علمها، ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين. وهذه مقالة غلاة

---

(١) انظر شرح العقيدة الواسطية للهراس ص (٢٨، ٢٩).

(٢) انظر مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٧٩).

الملحدين من الفلاسفة والباطنية؛ باطنية الشيعة وباطنية الصوفية.

ومنهم من يقول: بل الرسول علمها لكن لم يبينها، وإنما تكلم بما يناقضها لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق. ويقول هؤلاء: يجب على الرسول أن يدعو الناس إلى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل، وإلى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل، ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل.

قالوا: لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذه الطريقة التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد، فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر، وأما الأعمال فمنهم من يقرها ومنهم من يجريها هذا المجرى ويقول: إنما يؤمر بها الباطنية الملاحدة الإسماعيلية ونحوهم.

ثانياً: أهل التأويل: يقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول أن يعتقد الناس الباطل، ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم تلك المعاني ولا دلهم عليها، لكن أراد أن ينظروا ليعرفوا الحق بعقولهم ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها. ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامهم عن مدلوله ومقتضاه، ويعرفوا الحق من غير جهته. وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة ومن دخل معهم في شيء من ذلك.

ثالثاً: أهل التجهيل: وهم كثير من المنتسبين إلى السنة أتباع السلف يقولون: إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل من الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك، وكذلك قولهم في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمه إلا الله، مع أن الرسول ﷺ تكلم بها ابتداء. فعلى قولهم يكون قد تكلم بكلام لا يعرف معناه.

رابعاً: أهل التمثيل وقولهم إن ظواهر نصوص الأسماء والصفات هو ما عليه المخلوقات من الصفات والأسماء فيجعلون ما تدل عليه النصوص هو عين صفات المخلوق سواء بسواء.

التوحيـــد وأنواعـــه

ولما كان التوحيد هو الجزء الأعظم من عقيدة أهل السنة والجماعة، كان لا بد من تصوره على التمام، حتى يتحقق مدلوله المشتمل على أنواعه، وحتى يكون اللفظ مطابقاً للمعنى، ولا يكون كذلك إلا إذا اشتمل على أمرين:

أولاً: تحقيق مفاهيمه النظرية مقرونة بأدلتها من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، والعقل الصحيح.

ثانياً: تطبيقه كواقع عملي، تظهر آثاره على عباد الله.

هذا، والتوحيد من جهة مفاهيمه النظرية له ثلاثة أنواع وهي[1]:

١ ـ توحيد الربوبية.

٢ ـ توحيد الألوهية.

٣ ـ توحيد الأسماء والصفات.

وإليك تحليل معانيها وبيان مدلولاتها وأدلتها.

(١) انظر لوامع الأنوار البهية (١/١٠٩) الجامع الفريد ص (٣٤٠).

أولاً: توحيد الربوبية[1]

الربوبية نسبة لاسم الله «الرب» وهو يأتي لعدة معان، نذكر منها: المربي، الناصر، المالك، المصلح، السيد، والولي.

وشرعاً: هو الإيمان بأن الله هو الخالق، المالك، المتصرف في أمور هذا الكون، بالإحياء والإماتة وغيرها من الأمور القدرية، والسنن الكونية.

وهو بهذا المعنى لم يخرج عن المعنى اللغوي، فهو سبحانه المربي لخلقه، ورزقه العام لجميعهم، والمربي لرسله وأوليائه، بما اختصهم به، وهو الناصر لأوليائه ورسوله، والمالك لجميع خلقه، والمصلح لهم بما هيأه من مقومات خلقهم، والسيد الذي انتهى إلى أعلى درجات السؤدد، وهو الولي الذي تولى أمر أوليائه ورسله فلا غالب له.

وتوحيد الربوبية يشمل الإيمان بالأمور التالية.

١ ـ الإيمان بأفعال الله العامة: كالخلق، والرزق، والإحياء والإماتة، والملك، وغير ذلك.

٢ ـ الإيمان بقضاء الله وقدره.

---

(١) انظر الجامع الفريد ص (٤٩٦) تطهير الاعتقاد للصنعاني.

٣ ـ الإيمان بوحدانيته في ذاته.

الأدلة على توحيد الربوبية:

أولاً: الدليل القرآني:

وقد قامت الأدلة الشرعية على وجوب ربوبيته سبحانه، وضابطها أنها كل دليل ورد فيه اسم الرب أو الحمد تصريحاً، أو ذكر فيه خصيصة من خصائص الربوبية كالإحياء والاماتة وإنزال الغيث والخلق والرزق ونحو ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾. وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾. وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

ثانياً: الدليل النبوي:

قال ﷺ: «أول ما خلق الله: القلم».

وقال ﷺ: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك».

وقال عليه الصلاة والسلام: «يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة.

الدليل العقلي القرآني على توحيد الربوبية:

وقد دل العقل الصحيح على ما دلت عليه نصوص الشرع، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وتركيبه أن يقال: إن الفروض الممكنة في هذه القضية ثلاثة وهي:

١ ـ إما أن يكون خلقوا من العدم، وهو ممتنع ضرورة، إذ

العدم نقيض الوجود، فلا يكون العدم سبباً للوجود.

٢ ـ وإما أن يكونوا هم الخالقين، وهو مبني على الجمع بين النقيضين. إذ هو على فرض وجودهم في حال عدمهم، وهو ممتنع ضرورة إذ العدم نقيض الوجود.

٣ ـ وإما أن يكون الخالق غيرهم، وهو الله تعالى، وهو المطلوب إثباته.

ويسمى هذا الدليل عرفاً بدليل «السبر والتقسيم»، فالسبر: اختبار الفروض بالتعرف على الفاسد منها من الصحيح، والتقسيم: الحصر لها، بحيث لا يبقى مزيدٌ قطعاً أو ظناً.

الدليل العقلي الكلامي على توحيد الربوبية:

ومن ذلك الاستدلال بدليل «التمانع» في الربوبية؛ وتركيبه أن يقال: إذا قدر خالقان، فإما أن يتكافئا، أو يتفاوتا، فإن تكافئا، إما أن يكون فعل أحدهما شرطاً، والآخر: أو لا، فإن كان شرطاً، فقد تساقطا، لأن كل واحد منهما أعجز الآخر، وإن كان ليس بشرط، فيلزم من ذلك اجتماع النقيضين، إذا أراد أحدهما سكون جسم، وأراد الآخر حركته، وهو ممتنع.

وإن تفاوتا، فالأقدر منهما هو الأرجح، لكنه غولب والمغالبة دليل الضعف، لأن ذلك يؤدي إلى الفساد والاضطراب في المخلوقات، فلا يكون أحدهما إلهاً، لعدم وجود الفساد، فثبت المطلوب، وهو أنه لا بد من كون الرب واحداً.

هذا، وتوحيد الربوبية قد أقرت به سائر الأمم، إما ظاهراً وباطناً، أو باطناً فقط، كحال فرعون كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾. وقال سبحانه عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

وبذا يظهر أنه لا يكفي في إيمان العبد إيمانه واعترافه بتوحيد الربوبية، وأن هذا التوحيد بعض التوحيد الواجب لا كله[1].

(١) انظر إغاثة اللهفان (١/ ٣٠).

ثانياً: توحيد الأسماء والصفات

تعريفه:

وهو الإقرار والاعتراف الجازم بكل ما ورد في كتاب الله، وما ورد في سنة رسول الله ﷺ من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا.

مذهب السلف في الأسماء والصفات[1]:

إثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ، من غير تعطيل، ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تكييف على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فالجزء الأول من الآية هو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾ رد على الممثل والمكيف.

والجزء الثاني من الآية هو: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد على المعطل والمحرف.

مذهب السلف في النفي والإثبات[2]:

يثبتون ما تثبته نصوص الشرع إثباتاً مفصلاً، وينفون ما تنفيه نفياً

---

(١) انظر لوامع الأنوار البهية (١/ ٩١) الكواشف الجلية ص (٩٢).

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص (٤٦٦).

مجملاً، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. فأثبت الله الصفات إثباتاً مفصلاً، بأن عين أفراد الكمال كل واحدة على التعيين، وهو قوله: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ...﴾. فأثبت السمع، والبصر. ونفى التمثيل نفياً مجملاً، أي: نفياً يستغرق جميع صفات النقص المنافي لكماله المقدس، وهو قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

وأما ما ورد مما ظاهره النفي المفصل، والإثبات المجمل، فهو لعلة، كقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

فالأولى: لبيان استغراق الكمال له سبحانه.

والثانية: رد على اليهود، الذين نسبوا له تعالى السنة والنوم.

طريقة القرآن الكريم في إثبات توحيد الأسماء والصفات:

له طريقتان: عامة، وخاصة.

فالعامة: وذلك باستغراق الكمال، كقوله سبحانه: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، أي السيد الذي انتهى سؤدده لما له من صفات الكمال. وقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ فنزه نفسه عما لا يليق بكماله المقدس.

والخاصة: بالنص على أفراد الكمال واحداً واحداً كقوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾. وقوله سبحانه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ وغيرها كثير جداً.

أنواع الصفات عند أهل السنة والجماعة[1]:

الصفات نوعان:

---

(١) انظر مختصر الصواعق (٢/ ٣٥ ـ ٣٧) الكواشف الجلية ص (٢٤٢، ٤٢٩) انظر الجواب الصحيح (١/ ٢٤١) وما بعدها.

أولاً: صفات ثبوتية: وهي ما تحمل معنى الكمال الموجود، الذي يقوم بالبارىء جل شأنه.

ثانياً: صفات سلبية: وهي كل صفة تضمنت نفي ما يضاد كمال الله المقدس، لإثبات ضده من الكمال الوجودي.

فصفاته تعالى: إما وجودية، أو نفي يدل على المعنى الوجودي، فلا يوصف بعدم محض لا يدل على كمال فيها، لأنه نقص ينافي الكمال.

والصفات الثبوتية نوعان:

أولاً: صفات ذاتية: وهي المعاني التي لا تتعلق بالمشيئة والإرادة، ولا يتصور في وقت من الأوقات كون البارىء جل شأنه غير متصف بها، وذلك: كالسمع، والبصر، والإرادة، والمشيئة، والقدرة، ونحوها.

ثانياً: الصفات الفعلية: وهي المعاني التي تتعلق بالمشيئة والإرادة، فمتى شاء فعلها، ومتى شاء تركها: كالاستواء، والضحك، والعجب، والنزول إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل ويوم عرفة، والمجيء يوم القيامة، ونحو ذلك.

وهي قديمة النوع: بمعنى أن البارىء لم يزل متصفاً بها أزلاً، أي: في الزمن الماضي، ولا يزال متصفاً بها أبداً، أي: في المستقبل، وحادثة الآحاد: أي: فعل أفرادها شيئاً فشيئاً حسب ما تقتضيه مشيئته. لكن من صفات الفعل ما لا يطلق إلا في سياق خاص، كقوله سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فإنهما في سياق المقابلة بضد ما أرادوا جزاء وفاقاً، وهو مقيد بالكافرين ونحوه، فلا يتصف بها مطلقة عن قيودها، لأنها لا تكون كمالاً إلا فيها.

والصفات السلبية: مثل: نفي السنة والنوم، الذي يراد به إثبات ضده من الكمال، وهو كمال حياته سبحانه وقيوميته، كما في قوله

سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. ونفي الكفؤ المثبت لضده من الكمال، وهي الوحدانية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

موقف أهل السنة من التوافق بين صفات الخالق والمخلوق[1]:

للصفات عندهم ثلاثة اعتبارات:

الاعتبار الأول: الصفة مضافة إلى المخلوق، فهي مختصة به، والبارىء سبحانه منزه عن الاتصاف بها، لأن الاختصاص يمنع الاشتراك.

الاعتبار الثاني: الصفة مضافة إلى الخالق، فهي مختصة به سبحانه، وهذا الاختصاص به يمنع اتصاف المخلوق بها، لأنه لو جاز اتصاف المخلوق بصفات الخالق، للزم أن يتماثلا فيما يجوز ويمتنع ويجب لكل منهما، وهو ممنوع، فما بني عليه كذلك ممنوع، ما كان من صفة للخالق لا يتصف المخلوق بها.

الاعتبار الثالث: الصفة مقطوعة عن الإضافة لواحد منهما، فلا يلزمها حينئذ ما به اختصاص أحدهما، بل هي اسم جنس، والخالق والمخلوق حينئذ أفراد لها، فيلزمهما لوازمها، من حيث كونها صفة كمال لا نقص فيها، وكونها تحمل معنى ممدوحاً، وكونها كمالاً.

وبذا يعلم أن الاتفاق بينهما إنما هو في معنى عام غير مختص بواحد منهما، فلا يلزم منه التمثيل المذموم الذي نفته الأدلة الشرعية والعقلية، الصحيحة، كما في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إذ ما من موجودين إلا وبينهما قدر مشترك، ولا يلزم من وجوده

---

(١) انظر شرح حديث النزول ص (١١) مجموع النفائس التدمرية ص (١١) وما بعدها مختصر الصواعق (٢/ ٣٥ ـ ٣٧).

تماثلهما فيما هو من اختصاص كل واحد منهما، لأن الصفة في حال الاختصاص غيرها في حال الاشتراك، وكل منهما مانع من إرادة الآخر.

هذا، وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات من جنس واحد، فهما توحيدان مفهومهما اعتقادي، ولذا أطلق بعض أهل العلم عليهما اسماً واحداً، وهو توحيد المعرفة والإثبات.

ثالثاً: توحيد الألوهية[1]

الألوهية مشتقة من كلمة (إله) بمعنى: المعبود والمطاع، وهو يطلق على المعبود بحق، كقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. ويطلق على المعبود بالباطل، كما في قوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾. ثم غلب بعد ذلك استعماله على الإله الحق وصار معناه حينئذ: هو من تألهه القلوب حباً وتعظيماً وإجلالاً، وبذا يكون معناه يشتمل على أمرين:

الأول منهما: العبادة. والثاني: الطاعة[2].

ومعنى توحيد الألوهية في الشرع، لا يخرج عن هذين المعنيين، فيكون تعريفه:

هو إفراد الله بالعبادة والطاعة. أو هو توحيد الله بأفعال عباده: كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والذبح، والنذر، والخوف، والرجاء، والمحبة، على معنى أنهم يفعلونها طاعة له، وابتغاء مرضاته، ممتثلين في ذلك الأمر بالفعل للمأمور، ولنهيه، وذلك بترك المنهي عنه.

---

(١) انظر الجامع الفريد ص (٤٩٦ ـ ٤٩٩) تطهير الاعتقاد للصنعاني.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص (٤٦١).

وبذا يعلم أنه لا يتحقق توحيد الألوهية إلا بوجود أصلين:

الأول: أن تصرف جميع أنواع العبادة له سبحانه دون ما سواه.

الثاني: أن تكون العبادة موافقة لأمر الله ونهيه عن معصيته.

ويجمع هذين الأصلين: الإخلاص، والمتابعة، الذي هو بالتالي مدلول كلمة الشهادة، «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» لأنه توحيد للمرسل (بكسر السين) الذي هو الله، وتوحيد للمرسل (بفتح السين) الذي هو الرسول ﷺ.

فلا عبادة، ولا طاعة إلا لله، ولا طريق لذلك إلا رسول الله ﷺ، وكل طريق غيره فإنه لا يوصل إلى المطلوب.

ومن هذا المنطلق صار هذا التوحيد أعظم أنواع التوحيد كلها، وأهمها، إذ به تساس الحياة، وعليه تبنى الشريعة، إذ لا حكم ولا طاعة في أي أمر من الأمور إلا لله ورسوله، لذا فما أرسل الله من رسول إلا وبعثه بمدلوله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾. وقد أخبر عنه سبحانه أنه هو الغاية من الخلق فقال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.

وهو حق الله الذي لا يكون لغيره كما قال ﷺ: «وحق الله على العباد، أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئاً».

ولأجل هذا التوحيد شرع الله الجهاد، واستبيحت الدماء، كما قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله ألا الله، وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها».

وهو أول واجب يدعى العباد إليه، كما قال ﷺ لمعاذ، لما بعثه إلى اليمن: «فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله ألا الله، وأن محمداً رسول الله» وفي رواية: «أن يوحدوا الله».

وقد دلت نصوص الشريعة على وجوبه، وعدم غنى غيره عنه، فقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

ووجهها: أنه لو تعدد الآلهة لحصل الفساد، لكن الفساد ما حصل، فليس فيهما إلا إله واحد، هو الله رب العالمين، وهو دليل جمع بين دلالة الخبر الصادق، ودلالة العقل الصحيح، فهو من جهة كونه إخباراً عن ألوهية الله، خبر صادق، ومن جهة جريانه على الموازين العقلية الصحيحة دليل عقلي صحيح. وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾. وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾. وقال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾. وقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. وقال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾. وقال عز سلطانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾.

ففي هذه السورة البراء من الشرك وأهله، الذي هو من أصول توحيد العبادة والألوهية.

هذا، وقد أبدأ وأعاد القرآن الكريم في الكلام على هذا التوحيد، فأقام عليه الأدلة العامة التي تبين حقيقته، ومنزلته من دين المسلمين، والأدلة الخاصة التي تعالج مظاهره وصوره الموجودة في حياة الناس. والناظر في ذلك يجد أن أعظم الغلط والخطر، إنما حصل من جهة الانحراف في فهم مدلول هذا التوحيد.

فالمتكلمون لما لم يعرفوا مدلوله وفسروه بتوحيد الربوبية، الذي هو التوحيد الذي أقر به المشركون، ترتب عليه ضلال كثير من الناس، وذلك بالوقوع فيما يضاده من الشرك ووسائله، بدعوى أنهم لم يناقضوا

التوحيد، حيث آمنوا بربوبية رب العالمين[1]، مما يدعونا إلى ذلك الفروق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وهي كما يلي:

١ ـ الاختلاف في الاشتقاق، فالربوبية: مشتقة من اسم الله «الرب» والألوهية: مشتقة من لفظ «الإله».

٢ ـ أن متعلق الربوبية: الأمور الكونية: كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، ونحوها. ومتعلق توحيد الألوهية: الأوامر والنواهي: من الواجب، والمحرم، والمكروه.

٣ ـ أن توحيد الربوبية قد أقر به المشركون، أما توحيد الألوهية فقد رفضوه. وذكر الله ذلك في كتابه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾. وقال عز وجل: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

٤ ـ أن توحيد الربوبية مدلوله علمي. وأما توحيد الألوهية فمدلوله عملي.

٥ ـ أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، بمعنى أن توحيد الألوهية خارج عن مدلول توحيد الربوبية؛ لكن لا يتحقق توحيد الربوبية إلا بتوحيد الألوهية، وأن توحيد الألوهية متضمن توحيد الربوبية، بمعنى أن توحيد الربوبية جزء من معنى توحيد الألوهية.

٦ ـ أن توحيد الربوبية لا يدخل من آمن به في الإسلام بعكس توحيد الألوهية، فإن الإيمان به يدخل في الإسلام.

٧ ـ أن توحيد الربوبية توحيد الله بأفعاله هو سبحانه، كالخلق ونحوه. أما توحيد الألوهية فهو توحيد الله بأفعال عباده: من الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، والخشية، والرهبة، والخوف، والمحبة، والرجاء، ونحو ذلك. ويُطْلَقُ على توحيد الألوهية توحيد الإرادة والطلب.

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص (٤٥٩).

هذا مذهب السلف في أسماء الله وصفاته وهو اثباتها كما جاءت في الكتاب والسنة من غير تشبيه لها بصفات المخلوقين، ومن غير تعطيل ونفي لها بل اثبات بلا تشبيه، وتنزيه لله بلا تعطيل، على حد قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(الشورى/ آية ١١) فمن نسب إلى السلف أن مذهبهم التفويض فقد كذب وافترى عليهم ورماهم بما هم بريئون منه .

نسأل الله العفو والعافية.

الأصل الثاني[1]
وجوب الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو أحد أركان الإيمان الستة كما جاء في حديث جبريل حيث قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) وقد جاء ذكر الإيمان بالملائكة مقروناً بالإيمان بالله في كثير من الآيات القرآنية، كما قال تعالى: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ (البقرة/٢٨٥). وكما في قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ (البقرة/١٧٧).

والإيمان بالملائكة يتضمن التصديق بوجودهم وأنهم عباد مكرمون خلقهم الله لعبادته وتنفيذ أوامره والإيمان بأصنافهم وأوصافهم وأعمالهم التي يقومون بها حسبما ورد في الكتاب والسنة، والإيمان بفضلهم ومكانتهم عند الله عز وجل، وقد ورد في صحيح مسلم أن الله خلقهم من نور ومما يدل على فضلهم وشرفهم أن الله يضيفهم إليه إضافة تشريف كقوله: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ (الأحزاب / ٥٦). وقوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته﴾ (البقرة / ٢٨٥). وقوله: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته﴾ (النساء / ١٣٦) . وقوله: ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ﴾ (البقرة/ ٩٨) . ويقرن سبحانه شهادتهم مع شهادته وصلاتهم مع صلاته كقوله تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾ (آل عمران / ١٨) . وقوله: ﴿ إن الله وملائكته يصلون

(١) الأصل الأول تقدم في صفحة (١٦).

على النبي ﴾ (الأحزاب / ٥٦) . ويصفهم سبحانه بالكرم والإكرام ، قال تعالى : ﴿ بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ (عبس / ١٥) . وقال تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ﴾ (الانفطار / ١٠).

وقوله : ﴿بل عباد مكرمون﴾ (الأنبياء / ٢٦). ويصفهم بالعلو والتقريب كما في قوله تعالى : ﴿لا يَسَّمَّعُون إلى الملأ الأعلى﴾ (الصافات / ٨). وفي قوله : ﴿يشهده المقربون﴾ (المطففين / ٢١). ، ويذكر حملهم للعرش وحفهم به كما في قوله : ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ (غافر / ٧) وقوله : ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ (الزمر / ٧٥) ويذكر سبحانه أنهم عنده ويعبدونه ويسبحونه كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون﴾ (الأعراف / ٢٠٦) وقوله : ﴿فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ (فصلت / ٣٨).

وهم بالنسبة إلى الأعمال التي يقومون بها أصناف، فمنهم حملة العرش، قال تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله﴾ (غافر / ٧) وقال تعالى: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ (الحاقة / ١٧) ومنهم المقربون كما قال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾ (النساء / ١٧٢) ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها، ومنهم الموكلون بالنار وتعذيب أهلها وهم الزبانية ومقدموهم تسعة عشر وخازنها مالك، وهو مقدم الخزنة، كما قال تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾ وقوله :﴿ونادوا يامالك ليقض علينا ربك﴾ (الزخرف / ٧٧). وقوله : ﴿ قال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ (غافر / ٤٩) وقال تعالى: ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (التحريم / ٦)، ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم في الدنيا قال تعالى: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ (الرعد / ١١)الآية. أي معه ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد وكتابتها، وقال تعالى: ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد.ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق/١٨-١٩). وقال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً

كاتبين﴾، (الانفطار / ١٠ - ١١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار» فمع الإنسان ملائكة يحفظونه من المؤذيات وملائكة يحفظون عليه أعماله وما يصدر منه، ومن الملائكة من هو موكل بالرحم وشأن النطفة، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد».

ومنهم ملائكة موكلون بقبض الأرواح، قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ (الأنعام / ٦١) وقال تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ (السجدة / ١١)، فملك الموت له أعوان من الملائكة يستخرجون روح العبد من جسمه حتى تبلغ الحلقوم فيتناولها ملك الموت، والمقصود أن الله وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة تدبر شئونها بإذنه وأمره ومشيئته سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ (الأنبياء / ٢٧) وقوله: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (التحريم / ٦) فلهذا يضيف سبحانه التدبير إلى الملائكة تارة لكونهم المباشرين له كقوله تعالى: ﴿فالمدبرات أمراً﴾ ويضيف التدبير إليه تارة، كقوله: ﴿يدبر الأمر﴾ فالملائكة رسل الله في خلقه وأمره، واسم الملك يتضمن أنه رسول لأنه من الألوكة بمعنى الرسالة، وقال تعالى: ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾ (فاطر / ١) وقال تعالى: ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فهم رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض، وهم رسله في تدبير أمره الديني الذي تنزل به على الرسل من البشر، قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون﴾ (النحل / ٢) وقال تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ (الحج / ٧٥) وأعظمهم جبريل عليه السلام وهو أمين الوحي، كما قال تعالى: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء / ١٩٢ - ١٩٥) وقال تعالى: ﴿قل نزله روح القدس من ربك بالحق﴾ (النحل / ١٠٢) وقد أعطى الله الملائكة قدرة على التشكل بأشكال

مختلفة، فقد جاءوا إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام بصورة أضياف، وكان جبريل يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صفات متعددة، تارة يأتي في صورة دحية الكلبي، وتارة في صورة أعرابي، وتارة في صورته التي خلق عليها، وقد وقع منه هذا مرتين، وذلك لأن البشر لا يستطيعون أن يروا الملك في صورته، ولما اقترح المشركون أن يرسل الله إليهم ملكاً قال تعالى: ﴿ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ (الأنعام ٨-٩). أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، لأن كل جنس يأنس بجنسه، وينفر من غير جنسه.

هذا وبالله التوفيق..

الأصل الثالث
الإيمان بالكتب

الإيمان بالكتب الإلهية، هو أحد أصول الإيمان وأركانه.. والإيمان بها هو التصديق الجازم بأنها حق وصدق، وأنها كلام الله عز وجل فيها الهدى والنور والكفاية لمن أنزلت عليهم نؤمن بما سمى الله منها و هي: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، وما لم يسم منها - فإن لله كتباً لا يعلمها إلا هو سبحانه، وإنزال الكتب من رحمة الله بعباده لحاجة البشرية إليها لأن عقل الإنسان محدود لا يدرك تفاصيل النفع والضرر، وإن كان يدرك الفرق بين الضار والنافع إجمالاً.

والعقل الإنساني أيضاً تغلب عليه الشهوات وتلعب به الأغراض والأهواء، فلو وكلت البشرية إلى عقولها القاصرة لضلت وتاهت فاقتضت حكمة الله ورحمته أن ينزل هذه الكتب على المصطفين من رسله ليبينوا للناس ما تدل عليه هذه الكتب وما تتضمنه من أحكامه العادلة ووصاياه النافعة وأوامره ونواهيه الكفيلة بإصلاح البشرية، قال تعالى حين أهبط آدم أبي البشرية من الجنة: ﴿فإما يأتينكم مني هدى

فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة / ٣٨). وقال تعالى: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأعراف /٣٥)

وقد انقسم الناس حيال الكتب السماوية إلى ثلاثة أقسام :

قسم كذب بها كلها وهم أعداء الرسل من الكفار والمشركين والفلاسفة.

وقسم آمن بها كلها وهم المؤمنون الذين آمنوا بجميع الرسل وما أنزل إليهم، كما قال تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ (البقرة / ٢٨٥).

وقسم آمن ببعض الكتب وكفر ببعضها وهم اليهود والنصارى ومن سار على نهجهم الذين يقولون: ﴿نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾ (البقرة / ٩١) بل هؤلاء يؤمنون ببعض كتابهم ويكفرون ببعضه كما قال تعالى فيهم: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون﴾ (البقرة / ٨٥).

ولا شك أن الإيمان ببعض الكتاب أو ببعض الكتب والكفر بالبعض الآخر كفر بالجميع لأنه لابد من الإيمان بجميع الكتب السماوية وبجميع الرسل، لأن الإيمان لابد أن يكون مؤتلفاً جامعاً لا تفريق فيه ولا تبعيض ولا اختلاف، والله تعالى ذم الذين تفرقوا واختلفوا في الكتاب كما قال تعالى: ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ (البقرة / ١٧٦). وسبب كُفْر من كَفَر بالكتب أو كفر ببعضها أو ببعض الكتاب الواحد هو اتباع الهوى والظنون الكاذبة، وزعمهم أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي ويسمون أنفسهم بالحكماء والفلاسفة ويسخرون من الرسل وأتباعهم ويصفونهم بالسفه، كما قال تعالى: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون﴾ (غافر / ٨٣).

وأما اتباع الرسل فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله لا يفرقون بينها، والإيمان بالكتب السابقة إيمان مجمل يكون بالإقرار بها بالقلب واللسان، أما الإيمان بالقرآن فإنه إيمان مفصل يكون بالإقرار به بالقلب واللسان واتباع ما جاء فيه وتحكيمه في كل كبيرة وصغيرة والإيمان بأنه كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وقد اقتضت حكمة الله أن تكون الكتب السابقة لآجال معينة ولأوقات محددة ووكل حفظها إلى الذين استحفظوا عليها من البشر، كما قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ (المائدة / ٤٤).

أما القرآن الكريم فقد أنزله الله لكل الأجيال من الأمم في كل الأوطان إلى يوم القيامة. وتولى حفظه بنفسه لأن وظيفة هذا الكتاب لا تنتهي إلا بنهاية حياة البشر على الأرض، قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر / ٩)، وقال تعالى: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ (فصلت / ٤٢). ويجب تحكيم هذا القرآن في جميع الخلافات. ويجب رد جميع النزاعات إليه ـ وقد جعل الله التحاكم إلى غير كتابه تحاكماً إلى الطاغوت، قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به﴾ (النساء / ٦٠).

والطاغوت: فعلوت من الطغيان وهو مجاوزة الحد، وقد ذم الله المدعين للإيمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «وما حكم قوم بغير ما أنزل الله إلا وقع بأسهم بينهم» وهذا من أعظم تغيير الدول ونشوب الفتن والتناحر بين الشعوب، لأن الإيمان بالكتاب يوجب التحاكم إليه، فمن ادعى الإيمان بالكتاب وهو يتحاكم إلى غيره فهو متناقض في دعواه، والكتاب لا يتجزأ فيجب تطبيقه كله والعمل به كله في كل المجالات في العقائد والعبادات والمعاملات وفي الأحوال الشخصية والجنايات والحدود، وفي الآداب والسلوك، قال تعالى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ (المائدة ٤٢) ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ (المائدة ٤٥) ﴿ومن لم يحكم بما أنزل

الله فأولئك هم الفاسقون﴾ (المائدة / ٤٧)، وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (النساء / ٦٥) فنفى الإيمان نفياً مؤكداً بالقسم عمن لم يُحَكِّم الرسول صلى الله عليه وسلم في موارد النزاع مع انشراح صدره وانقياده لحكم الله . . . كما وصف من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق، وإن ادعى الإيمان والعدالة والعدل فتباً لقوم استبدلوا كتاب الله بالقوانين الوضعية الطاغوتية وهم يدَّعُون الإيمان فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الأصل الرابع
الإيمان بالرسل

الإيمان بالرسل أحد أصول الإيمان، لأنهم الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ رسالاته وإقامة حجته على خلقه. والإيمان بهم يعني التصديق برسالتهم والإقرار بنبوتهم وأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله، وقد بلغوا الرسالات وبينوا للناس ما لا يسع أحداً جهله.

والأدلة على وجوب الإيمان بالرسل كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ (البقرة/١٧٧) وقوله: ﴿كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (البقرة / ٢٨٥)، وقوله تعالى: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً﴾ (النساء / ١٥٠).

ففي هذه الآيات قرن الله الإيمان بالرسل بالإيمان به سبحانه وبملائكته وكتبه، وحكم بكفر من فرق بين الله ورسله فآمن ببعض وكفر ببعض، وبَعْث الرسل نعمة من الله على البشرية، لأن حاجة البشرية إليهم ضرورية، فلا تنتظم لهم حال ولا

يستقيم لهم دين إلا بهم، فهم يحتاجون إلى الرسل أشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين خلقه في تعريفهم بالله وبما ينفعهم وما يضرهم، وفي تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة وبيان ما يحبه الله وما يكرهه، فلا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من جهة الرسل.

فإن العقل لا يهتدي إلى تفصيل هذه الأمور وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، قال الله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٣) وحاجة العباد إلى الرسالات أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب فإن غاية ما يحصل بعدم وجود الطبيب تضرر البدن، والذي يحصل من عدم الرسالة تضرر القلوب، ولا بقاء لأهل الأرض إلا ما دامت آثار الرسالة موجودة فيهم، فإذا ذهبت آثار الرسالة من الأرض أقام الله القيامة .

والرسل الذين ذكر الله أسماءهم في القرآن يجب الإيمان بأعيانهم وهم خمسة وعشرون منهم ثمانية عشر ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ (الأنعام / ٨٣). إلى قوله: ﴿وكلاً فضلنا على العالمين﴾ والباقون وهم سبعة ذكروا في آيات متفرقة، ومن لم يسم في القرآن من الرسل وجب الإيمان به إجمالاً قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ (غافر / ٧٨)، وقال تعالى: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ (النساء / ١٦٤) وهنا مسألة تحتاج إلى بيان وهي الفرق بين النبي والرسول: فالفرق بين النبي والرسول على المشهور :

أن الرسول : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه .

والنبي : إنسان ذكر أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه .

وكل من النبي والرسول يوحى إليه، لكن النبي قد يبعث في قوم مؤمنين بشرائع سابقة كأنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة، وقد يوحى إلى أحدهم وحي

خاص في قضية معينة، وأما الرسل فإنهم يبعثون في قوم كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته، فهم يرسلون إلى مخالفين فيكذبهم بعضهم .

والرسول أفضل من النبي، والرسل يتفاضلون قال تعالى: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض**﴾ (البقرة / ٢٥٣) وأفضل الرسل أولو العزم وهم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً**﴾ (الأحزاب / ٧) وفي قوله تعالى: ﴿**شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى**﴾ (الشورى / ١٣) وأفضل أولي العزم الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما وعليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام وأفضل الخليلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا والنبوة تفضل واختيار من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿**الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس**﴾ (الحج / ٧٥) . وليست النبوة كسباً يناله العبد بالجد والاجتهاد وتكلف أنواع العبادات واقتحام أشق الطاعات والدأب في تهذيب النفس وتنقية الخاطر وتطهير الأخلاق ورياضة النفس كما يقول الفلاسفة : إنه يجوز اكتساب النبوة حيث يزعمون أن من لازَمَ المشاهدة بعد كمال ظاهره وباطنه بالتهذيب والرياضة فإنها تنصقل مرآة باطنه وتفتح بصيرة لبه ويتهيأ له ما لا يتهيأ لغيره. .

فللنبوة عند الفلاسفة ثلاث خصائص :

الأولى : القوة العلمية بحيث ينال العلم بدون تعلم بل بطريق القوة.

الثانية : قوة التخيل بحيث يتخيل في نفسه أشكالاً نورانية تخاطبه ويسمع الخطاب منها.

الثالثة : قوة التأثير في الناس وهي التي يسمونها التصرف في هيولي العالم. وهذه الصفات عندهم تحصل بالاكتساب ولهذا طلب النبوة بعض المتصوفة، فهي عندهم صنعة من الصنائع وهذا قول باطل يرد عليه قول الله تعالى: ﴿**قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل**

رسالته﴾ (الأنعام / ١٢٤) وقوله تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ (الحج / ٧٥).

فالنبوة اصطفاء من الله حسب حكمته وعلمه بمن يصلح لها، وليست اكتساباً من قبل العبد. صحيح أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اختصوا بفضائل يمتازون بها عن غيرهم ولكن ليست على النحو الذي يقوله الفلاسفة الضلال.

ذكر خصائص الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إجمالاً

للرسول محمد صلى الله عليه وسلم خصائص اختص بها عن غيره من الأنبياء وخصائص اختص بها عن أمته:

والخصائص التي اختص بها عن غيره من الأنبياء كثيرة منها:

١ ـ إنه خاتم النبيين، قال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ (الأحزاب / ٤٠) وقال صلى الله عليه وسلم: (أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي).

٢ ـ المقام المحمود وهو الشفاعة العظمى، كما في قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ (الإسراء / ٧٩)، وكما في حديث الشفاعة الطويل المتفق على صحته، أن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيقول بعض الناس لبعض ألا ترون إلى ما أنتم فيه ألا ترون إلى ما قد بلغكم، ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم، فيأتون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكلهم يقول:

بل بلسان قريش لأجل التبليغ لأنه بلغ قومه أولاً ثم بواسطتهم بلغ سائر الأمم، وأمره بتبليغ قومه أولاً ثم بتبليغ الأقرب فالأقرب إليه كما أمر بجهاد الأقرب فالأقرب، وكما كان صلى الله عليه وسلم مبعوثاً إلى الإنس فهو مبعوث أيضاً إلى الجن فقد استمع الجن لقراءته وولوا إلى قومهم منذرين كما أخبر الله عز وجل وهذا متفق عليه بين المسلمين وقد ذكر الله في القرآن من خطاب الثقلين ما يبين هذا الأصل كقوله تعالى: ﴿**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم**﴾ الآية (الأنعام / ١٣٠) وقد أخبر الله عن الجن أنهم قالوا: ﴿**وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا**﴾ (الجن / ١١) أي مذاهب شتى مسلمون وكفار وأهل سنة وأهل بدعة وقالوا: ﴿**وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون... الآية**﴾ (الجن / ١٤). والقاسط الجائر يقال قسط إذا جار، وأقسط إذا أعدل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية، يجب على الإنسان أن يعلم أن الله عز وجل أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته وأن يحللوا ما حلل الله ورسوله ويحرموا ما حرم الله ورسوله ويحبوا ما أحبه الله ورسوله ويكرهوا ما كرهه الله ورسوله وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من الإنس والجن فلم يؤمن به استحق عقاب الله تعالى كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول، وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

٤ - ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم القرآن العظيم الذي أذعن لإعجازه الثقلان وأحجم عن معارضته مصاقيع الإنس والجان واعترف بالعجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله أهل الفصاحة والبلاغة من سائر الأديان، وقد سبق تفصيل ذلك.

٥ - ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم المعراج إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام فكان قاب قوسين أو أدنى.

وأما الخصائص التي اختص بها دون أمته ـ فقد قال القرطبي في تفسيره: خص الله تعالى رسوله من أحكام الشريعة بمعان لم يشاركه فيها أحد، في باب الفرض والتحريم والتحليل، مزية على الأمة وهبة له ومرتبة خص بها ففرضت عليه أشياء ما فرضت على غيره، وحرمت عليه أشياء لم تحرم عليهم وحللت له أشياء لم تحلل لهم منها متفق عليه ومنها مختلف فيه. ثم ذكر هذه الخصائص ومنها: التهجد بالليل، يقال أن قيام الليل كان واجباً عليه إلى أن مات لقوله تعالى: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً﴾ (المزمل / ١) والمنصوص أنه كان واجباً عليه ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾، (الإسراء / ٧٩) ومنها أنه إذا عمل عملاً أثبته، ومنها تحريم الزكاة عليه وعلى آله، ومنها أنه أُحل له الوصال في الصيام، وأحل له الزيادة على أربع نسوة، ومنها أنه أُحل له القتال بمكة، ومنها أنه لا يورث، ومنها بقاء زَوْجِيَّتِهِ بعد الموت، وإذا طلق امرأة تبقى حرمته عليها فلا تنكح، إلى غير ذلك من الخصائص النبوية.

ولنتكلم عن ثلاث من أعظم خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي: الإسراء والمعراج، وعموم رسالته وختم النبوة به صلى الله عليه وسلم.

١ ـ الإسراء والمعراج:

قال سبحانه وتعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (الإسراء / ١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة، يمجد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿الذي أسرى بعبده﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم، ﴿ليلاً﴾، أي في جنح الليل ﴿من المسجد الحرام﴾ وهو مسجد مكة ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ وهو بيت المقدس الذي بإيليا معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام. ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم في محلتهم ودارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم والرئيس المقدم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وقوله تعالى: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي في

الزروع والثمار ﴿لنريه﴾ أي محمداً ﴿من آياتنا﴾ أي العظام كما قال تعالى: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ (النجم/ ١٨) ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم مصدقهم ومكذبهم البصير بهم فيعطى كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة. انتهى.

والمعراج:

مفعال من العروج أي الآلة التي يعرج فيها أي يصعد وهو بمنزلة السلم لكن لا يعلم كيف هو إلا الله وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته. والذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة وقبل الهجرة بسنة وقيل بسنة وشهرين ذكره ابن عبد البر.

صفة الإسراء والمعراج المستفادة من النصوص:

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره، والحق أنه عليه السلام أسري به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السموات السبع فتلقاه من كل سماء مقربوها وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم حتى مر بموسى الكليم في السادسة وإبراهيم الخليل في السابعة ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام. أي أقلام القدر بما هو كائن ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة وغشيتها الملائكة ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة ورأى الجنة والنار، وفرض عليه هنالك الصلوات خمسين ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط

معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء والذي تظاهرت به الروايات أنه أمهم ببيت المقدس ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه والظاهر أنه بعد رجوعه إليه لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبر بهم وهذا هو اللائق لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع فيه (أي بيت المقدس) هو وإخوانه من النبيين ثم ظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام في ذلك ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس والله سبحانه وتعالى أعلم.

هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه أو بروحه فقط :

اختلف الناس هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه، أو بروحه فقط على قولين :

فالأكثرون من العلماء على أنه أسري ببدنه وروحه يقظة لا مناماً والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله**﴾ (الإسراء / ١) فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام فلو كان مناماً لم يكن فيه شيء كبير ولم يكن مستعظماً ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه ولما ارتدت جماعة ممن كان قد أسلم، وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والبدن وقد قال: ﴿**أسرى بعبده ليلاً**﴾ وأيضاً قال سبحانه : ﴿**وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس**﴾ (الإسراء / ٦٠) قال ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به رواه البخاري وأيضاً قال سبحانه : ﴿**ما زاغ البصر وما طغى**﴾ (النجم / ١٧) والبصر من آلات الذات لا الروح وأيضاً فإنه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان وإنما يكون هذا للبدن لا للروح لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه.

وقال آخرون، بل أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم بروحه لا بجسده نقل

هذا القول ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية رضي الله عنهما ونقل عن الحسن البصري نحوه وليس المراد بهذا القول أن الإسراء كان مناماً، بل إن الروح ذاتها أسري بها ففارقت الجسد ثم عادت إليه. . وهذا من خصائصه فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

والمراد بالمنام: أن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة فيرى كأنه قد عرج إلى السماء وذهب به إلى مكة وروحه لم تصعد ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والفرق بين الأمرين واضح، واستدل من قال إن الإسراء كان بروحه لا بجسده بما جاء في رواية شريك (ابن أبي نمر) عن أنس: (ثم استيقظت فإذا أنا في الحجر). . . وقد أجيب عنه بجوابين:

أحدهما: أن هذا معدود من غلطات شريك فقد غلط الحفاظ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء.

الثاني: أن الاستيقاظ محمول على الانتقال من حال إلى حال قال ابن كثير وهذا الحمل أحسن من التغليط والله أعلم. .

إلى أن قال: ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء طِبْقَ ما وقع بعد ذلك فإنه صلى الله عليه وسلم كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح وقد تقدم مثل ذلك في حديث بدء الوحي أنه رأى مثل ما وقع له يقظة مناماً قبله ليكون ذلك من باب الإرهاص والتوطئة والتثبيت والإيناس. . والله أعلم.

هل تكرر المعراج:

قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساق الأحاديث الواردة في هذا الموضوع: وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها فَحُصِّلَ مضمون ما اتفقت عليه من إسراء رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أدائه أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء عليهم السلام.

ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبتت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب وقد صرح بعض المتأخرين بأنه عليه السلام أسري به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس فقط ومنه إلى السماء وفرح بهذا المسلك وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات وهذا بعيد جداً ولم ينقل هذا عن أحد من السلف ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي صلى الله عليه وسلم به أمته ولنقله الناس على التعدد والتكرار. .

وزعم بعض الصوفية أن المعراج وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاثين مرة وقال بعضهم أربع وثلاثين مرة. واحدة منها بجسمه الشريف والباقي بروحه، وقيل كان الإسراء مرتين مرة يقظة ومرة مناماً وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: (ثم استيقظت) وبين سائر الروايات وكذلك منهم من قال بل كان مرتين مرة قبل الوحي ومرة بعده، ومنهم من قال بل ثلاث مرات مرة قبل الوحي ومرتين بعده وكلما اشتبه عليهم لفظه زادوا مرة للتوفيق.

قال ابن القيم: يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً فيقول: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين ثم يحطها إلى خمس.

وقال ابن كثير وكان بعض الرواة يحذف بعض الخبر للعلم به أو ينساه أو يذكر ما هو الأهم عنده أو يبسط تارة فيسوقه كله وتارة يحذف عن مخاطبه بما هو الأنفع عنده، ومن جعل كل رواية إسراء على حدة كما تقدم عن بعضهم فقد أبعد جداً وذلك أن كل السياقات فيها السلام على الأنبياء وفي كل منها يعرفه بهم وفي كلها يفرض عليه الصلوات فكيف يمكن أن يدعي تعدد ذلك هذا في غاية البعد والاستحالة، والله أعلم. .

٢ - عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على من أنكره :

يقول جماعة من اليهود والنصارى ومن قلدهم إن محمداً صلى الله عليه وسلم مرسل إلى العرب دون أهل الكتاب، ويلبسون بقولهم : إن كان دينه حقاً فديننا أيضاً حق والطرق إلى الله تعالى متنوعة ويشبهون ذلك بمذاهب الأئمة فإنه وإن كان أحد المذاهب راجحاً فأهل المذاهب الأخر ليسوا كفاراً.

وهذا القول ظاهر البطلان لأنهم لما صدقوا برسالته لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به وقد قال أنه رسول الله إلى الناس عامة والرسول لا يكذب فلزم تصديقه حتماً. وقد أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الأطراف يدعو إلى الإسلام، ثم مقاتلته لأهل الكتاب وسبي ذراريهم واستباحة دمائهم وضرب الجزية عليهم أمر معلوم بالتواتر والضرورة، فإنه دعا المشركين إلى الإيمان به، ودعا أهل الكتاب إلى الإيمان به، وجاهد أهل الكتاب كما جاهد المشركين .

فجاهد بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وأهل خيبر وهؤلاء كلهم يهود وسبى ذراريهم ونساءهم وغنم أموالهم، وغزا النصارى عام تبوك بنفسه وبسراياه حتى قتل في محاربتهم زيد بن حارثة مولاه وجعفر وغيرهما من أهله. وضرب الجزية على نصارى نجران، وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده جاهدوا أهل الكتاب وقاتلوا من قاتلهم وضربوا الجزية على من أعطاها منهم عن يد وهم صاغرون، وهذا القرآن الذي يعرف كل أحد أنه الكتاب الذي جاء به مملوء من دعوة أهل الكتاب إلى أتباعه ويكفر من لم يتبعه منهم ويلعنه كما جاء بتكفير من لم يتبعه من المشركين وذمه كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم﴾ الآية. (النساء / ٤٧) وفي القرآن من قوله ﴿يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل﴾ ما لا يحصى إلا بكلفة وقال تعالى: ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين﴾ الآية،

(البينة / ١) إلى قوله: ﴿خير البرية﴾ (البينة / ٧)، ومثل هذا في القرآن كثير جداً. وقد قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض﴾ (الأعراف / ١٥٨)، وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾ (سبأ / ٢٨) واستفاض عنه صلى الله عليه وسلم قوله: (فضلت على الأنبياء بخمس) ذكر منها أنه: (كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) بل تواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه بعث إلى الجن والإنس، فإذا علم بالاضطرار وبالنقل المتواتر الذي تواتر كما تواتر ظهور دعوته أنه دعا أهل الكتاب إلى الإيمان به وأنه حكم بكفر من لم يؤمن به منهم، وأنه أمر بقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وأنه قاتلهم بنفسه وسراياه وأنه ضرب الجزية عليهم وقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم وغنم أموالهم فحاصر بني قينقاع ثم أجلاهم إلى أذرعات، وحاصر بني النضير ثم أجلاهم إلى خيبر وفي ذلك أنزل الله سورة الحشر ثم حاصر بني قريظة لما نقضوا العهد وقتل رجالهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم، وقد ذكره الله تعالى في سورة الأحزاب، وقاتل أهل خيبر حتى فتحها وقتل من قتل من رجالهم، وسبى من سبى من حريمهم وقسم أرضهم على المؤمنين وقد ذكره الله تعالى في سورة الفتح، وضرب الجزية على النصارى وفيهم أنزل الله سورة آل عمران، وغزا النصارى عام تبوك وفيها أنزل الله سورة براءة وفي عامة السور المدنية مثل البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وغير ذلك من السور المدنية من دعوة أهل الكتاب وخطابهم ما لا يتسع المقام لنشره، ثم خلفاؤه بعده أبوبكر وعمر ومن معهما من المهاجرين والأنصار الذين يعلم أنهم كانوا أتبع الناس له وأطوعهم لأمره وأحفظهم بعهده، وقد غزوا الروم كما غزوا فارس وقاتلوا أهل الكتاب كما قاتلوا المجوس فقاتلوا من قاتلهم وضربوا الجزية على من أداها منهم عن يد وهم صاغرون.

ومن الأحاديث الصحيحة عنه قوله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار). قال سعيد بن جبير: تصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ (هود/١٧) ومعنى الحديث متواتر عنه معلوم بالاضطرار، فإذا كان الأمر كذلك لزم

أنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى كل الطوائف فإنه يقرر بأنه رسول الله إلى أهل الكتاب وغيرهم، فإن رسول الله لا يكذب ولا يقاتل الناس على طاعته بغير أمر الله، ولا يستحل دماءهم وأموالهم وديارهم بغير إذن الله. . فمن قال أن الله أمره بذلك ولم يكن الله أمره كان كاذباً مفترياً ظالماً ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء﴾ (الأنعام / ٩٣) وكان مع كونه ظالماً مفترياً من أعظم المريدين علواً في الأرض وفساداً وكان شرًّا من الملوك الجبابرة الظالمين. فإن الملوك الجبابرة يقاتلون الناس على طاعتهم ولا يقولون إنا رسل الله إليكم ومن أطاعنا دخل الجنة ومن عصانا دخل النار. بل فرعون وأمثاله لا يدخلون في مثل هذا ولا يدخل في هذا إلا نبي صادق أو متنبيء كذاب كمسيلمة والأسود وأمثالهما .

فإذا علم أنه نبي لزم أن يكون ما أخبر به عن الله حقاً وإذا كان رسول الله وجبت طاعته في كل ما يأمر به كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ (النساء / ٦٤) وإذا أخبر أنه رسول الله إلى أهل الكتاب وأنه تجب عليهم طاعته كان ذلك حقاً.

ومن أقر بأنه رسول الله وأنكر أن يكون مرسلاً إلى أهل الكتاب فهو بمنزلة من يقول إن موسى كان رسولاً ولم يكن يجب أن يدخل أرض الشام ولا يخرج بني إسرائيل من مصر وأن الله لم يأمره بذلك وأنه لم يأمره بالسبت ولا أنزل عليه التوراة ولا كلمه على الطور، ومن يقول أن عيسى كان رسول الله ولم يبعث إلى بني إسرائيل ولا كان يجب على بني إسرائيل طاعته وأنه ظلم اليهود وأمثال ذلك من المقالات التي هي أكفر المقالات، ولهذا قال: ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ (النساء / ١٥٠ ـ ١٥١).

٣ ـ ختم الرسالات ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم :

لقد ختم الله سبحانه وتعالى النبوة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ (الأحزاب / ٤٠)

وقال صلى الله عليه وسلم: (أنا خاتم النبيين لا نبي بعدي) وذلك يستلزم ختم المرسلين لأن ختم الأعم يستلزم ختم الأخص ـ ومعنى ختم النبوة بنبوته عليه الصلاة والسلام أنه لا تبدأ نبوة ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشرعته، وأما نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان فلا ينافي ذلك لأن عيسى عليه السلام إذا نزل إنما يتعبد بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم دون شريعته المتقدمة لأنها منسوخة فلا يتعبد إلا بهذه الشريعة أصولاً وفروعاً فيكون خليفة لنبينا صلى الله عليه وسلم وحاكماً من حكام ملته بين أمته.

فهذا النبي الخاتم للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد بعث بخير كتاب وأتم شريعة وأفضل ملة وأكمل دين جاء بشريعة كافية لحاجة الخليقة في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة وكمل به عقد النبيين فلا نبي بعده وفي الصحيحين وغيرهما من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ومثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلون ويعجبون منها ويقولون لولا موضع اللبنة) زاد مسلم: (فجئت فختمت الأنبياء) وفي الصحيحين أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه معناه وفيه (فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين).

وقال صلى الله عليه وسلم: (كانت بنوا إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء) رواه البخاري وعن جابر بن سمرة قال رأيت خاتماً في ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه بيضة حمام، رواه مسلم، قال الحافظ في الفتح: قال القرطبي اتفقت الأحاديث الثابتة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر عند كتفه الأيسر قدره إذا قلل قدر بيضة الحمامة وإذا كبر جمع اليد[1] والله أعلم.

قال العلماء: السر في ذلك أن القلب في تلك الجهة، قال السهيلي: وضع خاتم النبوة عند كتفه صلى الله عليه وسلم لأنه معصوم من وسوسة الشيطان وذلك الموضع يدخل منه الشيطان، وقال الحافظ ابن كثير، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد

(١) يعني مقدار جمع اليد.

صلى الله عليه وسلم إليهم ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء المرسلين به وإكمال الدين الحنيف له وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تخرف وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب، كما أجرى الله تعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجي أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله. وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه فإنهم بضرورة الواقع (أي الكذابون) لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتقاء أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ويكونون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى: ﴿**هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم**﴾ (الشعراء ٢٢١ ـ ٢٢٢) وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم في غاية الصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويأمرون به وينهون عنه مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات والبراهين الباهرات فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات.

وليس الناس بحاجة إلى بعثة نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم لكمال شريعته ووفائها بحاجة البشرية. وماذا عسى أن يقتضي بعثة نبي جديد بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وإن قيل أن الأمة قد فسدت فالعمل على إصلاحها يحتاج إلى بعثة نبي جديد قلنا هل بعث نبي في الدنيا لمجرد الإصلاح حتى يبعث في هذا الزمان لمجرد هذا الغرض.

إن النبي لا يبعث إلا ليوحى إليه ولا تكون الحاجة إلى الوحي إلا لتبليغ رسالة جديدة أو إكمال رسالة متقدمة أو لتطهيرها من شوائب التحريف والتبديل فلما قضت كل هذه الحاجات إلى الوحي بحفظ القرآن وسنة محمد صلى الله عليه وسلم وإكمال

الدين على يده صلى الله عليه وسلم فلم تبق الحاجة الآن إلى الأنبياء وإنما هي إلى المصلحين. اهـ. بتصرف يسير من الرد على القاديانية. وقد أعلن الله ختم النبوات والرسالات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ (الأحزاب / ٤٠).

ومن البديهي الذي لا يقبل الاعتراض أن استمرار بقاء القرآن الحاوي بشرائعه وأحكامه أسس مطالب البشر التشريعية كلها محفوظاً كما أنزل على محمد مع استمرار بقاء سيرة الرسول وسنته المبينة لمعاني القرآن صحيحة ثابتة هو بمثابة استمرار وجود الرسول فينا على قيد الحياة، قال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾. . (النساء / ٥٩) والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد وفاته هو الرد إلى سنته وبذلك فقد أصبح العالم بغنية عن بعث أنبياء وإرسال رسل وتجديد شرائع للناس بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه، لأنه لو بعث الله رسلاً وأنبياء فلن يحدثوا شيئاً ولن يزيدوا على ما جاء به الرسول محمد من أسس في العقيدة أو في التشريع فقد أكمل الله الدين وأتم الشريعة حيث يقول: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (المائدة / ٣). وإن كان الغرض من إرسال الرسل هو نشر هذه الرسالة ودعوة الناس إليها فهذه وظيفة علماء المسلمين فعليهم أن يقوموا بتبليغ هذه الدعوة للناس.

فمن ادعى عدم ختم النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أو صدق من يدعي ذلك فهو مرتد عن دين الإسلام ولهذا حكم الصحابة على من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم بالردة وقاتلوه هو وأتباعه وسموهم بالمرتدين وهذا ما أجمع عليه علماء المسلمين سلفاً وخلفاً.

الحكمة في ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم

وكانت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة للنبوات لأنه بعث إلى الناس كافة إلى أن تقوم الساعة كما قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ / ٢٨) ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء / ١٠٧) ﴿تبارك الذي نزل

الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ (الفرقان / ١) ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف / ١٥٨). وإذا كانت رسالته عامة للناس فلابد أن تكون شريعته كاملة شاملة لمصالح البشر لا يحتاج معها إلى شريعة أخرى وبعثة نبي آخر كما قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (المائدة / ٣) وقال تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾ (النحل / ٨٩) وقال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ (المائدة / ٤٨).

قال الشيخ أبو الأعلى المودودي في رده على القاديانية: ونحن إذا تتبعناه أي القرآن بغية أن نعرف الأسباب التي لأجلها ظهرت الحاجة إلى إرسال نبي في أمة من أمم الأرض علمنا أن هذه الأسباب أربعة:

١ ـ كانت هذه الأمة ما جاءها من الله نبي من قبل ولا كان لتعاليم نبي مبعوث في أمة غيرها أن تصل إليها.
٢ ـ كان قد أرسل إليها نبي من قبل ولكن كان تعليمه قد انمحى أو لعبت به يد النسيان أو التحريف حتى لم يعد بإمكان الناس أن يتبعوه إتباعاً كاملاً صحيحاً.
٣ ـ كان قد أرسل إليها نبي من قبل ولكن تعاليمه ما كانت شاملة لمن يأتي بعده وافية لمتطلبات عصرهم، فألحت الحاجة إلى المزيد من الأنبياء لإكمال الدين.
٤ ـ كان قد أرسل إليها نبي ولكن كانت الحاجة تقتضي أن يرسل معه نبي آخر لتصديقه وتأييده.

وكل سبب من هذه الأسباب الأربعة قد زال بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلا حاجة للأمة الإسلامية ولا لأية أمة أخرى في العالم إلى أن يرسل إليها نبي جديد بعد محمد صلى الله عليه وسلم وقد تولى القرآن بنفسه بيان أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ولهداية الناس عامة، قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف / ١٥٨) وأيضاً مما يدل عليه تاريخ الحضارة في الدنيا أن الظروف في العالم ما زالت منذ بعثته صلى الله عليه وسلم ولا تزال مهيأة

بحيث من الممكن أن تصل دعوته إلى كل صقع من أصقاع العالم وإلى كل أمة من أممه فلا حاجة بعد ذلك إلى نبي جديد إلى أمة من أمم الدنيا أو صقع من أصقاعها فبذلك قد زال السبب الأول.

ومما يشهد به القرآن كذلك وتؤيده عليه ذخيرة كتب الحديث والسيرة أن التعليم الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال حياً محفوظاً على صورته الحقيقية ولم تلعب به يد النسيان ولا التحريف والتبديل. أما الكتاب الذي جاء به فما وقع التحريف ولا النقص ولا الزيادة في أي حرف من أحرفه ولا من الممكن أن يقع إلى يوم القيامة. وأما الهداية التي أعطاها للناس بأقواله وأفعاله فإننا نجد آثارها حتى اليوم حية مصونة كأننا أمام شخصه صلى الله عليه وسلم. وفي زمانه فبذلك قد زال السبب الثاني، ثم أن القرآن ليصرح كذلك بأن الله تعالى قد أكمل دينه بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم، فبذلك قد زال السبب الثالث أيضاً. ثم إن الحاجة لو كانت تقتضي إرسال نبي مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم لتأييده وتصديقه لأرسل في زمانه صلى الله عليه وسلم، فبذلك قد زال السبب الرابع أيضاً. فأي سبب خاص من بعد زوال هذه الأسباب الأربعة.. انتهى المقصود من كلامه.

ثانياً ـ الإيمان باليوم الآخر

وسمي باليوم الآخر لتأخره عن الدنيا وقد دل عليه العقل والفطرة. كما صرحت به جميع الكتب السماوية ونادى به الأنبياء والمرسلون، وقد أخبر الله عنه في كتابه العزيز وأقام الدليل عليه ورد على المنكرين له في غالب سور القرآن. والإقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب إلا من عاند كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون. ومحمد صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم الأنبياء

وكان قد بعث هو والساعة كهاتين بين تفصيل الآخرة بياناً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء. وقد تنوعت أدلة البعث في القرآن الكريم.

فتارة يخبر عمن أماتهم ثم أحياهم في الدنيا، كما أخبر عن قوم موسى الذين قالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾ قال: ﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ (البقرة: ٥٥) وعن ﴿الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم﴾ (البقرة: ٢٤٣). وعن إبراهيم إذ قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ (البقرة: ٢٦٠). القصة، وكما أخبر عن المسيح أنه كان يحيي الموتى بإذن الله وعن أصحاب الكهف أنهم بعثوا بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين.

وتارة يستدل على ذلك بالنشأة الأولى. فإن الإعادة أهون من الابتداء كما في قوله: ﴿إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾ (الحج: ٥) الآية، وقوله: ﴿قل يحييها الذى أنشأها أول مرة﴾ (يس: ٧٩) فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ (الإسراء: ٥١) ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ (الروم: ٢٧).

وتارة يستدل على ذلك بخلق السموات والأرض فإن خلقهما أعظم من إعادة الإنسان كما في قوله: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى﴾ (الأحقاف: ٣٣).

وتارة: يستدل عليه بتنزيه الله عن العبث كما قال تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (المؤمنون: ١١٥) ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ (القيامة: ٣٦) إلى قوله سبحانه: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ (القيامة: ٣٩) فالناس في هذه الدنيا منهم المحسن ومنهم المسيء وقد يموتون ولا ينال أحدهم جزاء عمله فلابد من دار أخرى يقام فيها العدل بين الناس وينال كل منهم جزاء عمله.

والإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، كما يدل على ذلك القرآن في كثير من الآيات حيث يذكر الإيمان به تارة مع الإيمان بالأركان الستة التي هي:

الإيمـان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، كما في حديث عمر رضي الله عنه في سؤالات جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم.

وتارة يذكر الإيمان به مع الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ (التوبة: ٢٩) وقال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ (البقرة: ٢٦٤).

وقد سمى الله هذا اليوم بعدة أسماء تنويهاً بشأنه وتنبيهاً للعباد ليخافوا منه فسماه اليوم الآخر، لأنه بعد الدنيا وليس بعده يوم غيره، وسماه يوم القيامة لقيام الناس فيه لربهم، وسماه: الواقعة والحاقة والقارعة والراجفة والصاخة والآزفة والفزع الأكبر ويوم الحساب ويوم الدين والوعد الحق، وكلها أسماء تدل على عظم شأنه وشدة هوله، وما يلقاه الناس فيه من الشدائد والأهوال، فهو يوم تشخص فيه الأبصار وتطير القلوب عن أماكنها حتى تبلغ الحناجر ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ (عبس ٣٤ - ٣٧) ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه﴾ (المعارج ٨ - ١٤)

والإيمان بهذا اليوم يحمل الإنسان على العمل والاستعداد له، كما قال تعالى: ﴿فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف: ١١٠)، وقال تعالى: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ (البقرة ٤٥ - ٤٦) وقال تعالى: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا﴾ (الإنسان ٧ : ١١) كما أن الإيمان بهذا اليوم يحمل على الثبات عند لقاء

الأعداء والصبر على الشدائد، كما قال تعالى في قصة طالوت وجنوده حينما لقوا عدوهم الذي يفوقهم في الكثرة بعد ما جاوزوا نهر الامتحان ولم ينجح منهم إلا القليل، قال تعالى: ﴿فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ (البقرة: ٢٤٩) كما أن عدم الإيمان بهذا اليوم يحمل الإنسان على الكفر والمعاصي وعلى الظلم والعدوان والبغي والفساد قال تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ (يونس ٧ ـ ٨) وقال تعالى: ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص: ٢٦) وقال تعالى: ﴿إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً﴾ (النبإ ٢٧ ـ ٢٨) وقال تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾ (الماعون: ١ ـ ٣). وقد أمر الله باتقاء ذلك اليوم بالاستعداد له بالأعمال الصالحة التي تنجي من أهواله، قال تعالى: ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ (البقرة: ٢٨١) ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ (البقرة: ١٢٣) ﴿واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً. إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ (لقمان: ٣٣).

والإيمان باليوم الآخر معناه أن تصدق بكل ما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه وبالبعث بعد ذلك والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار وبكل ما وصف الله به يوم القيامة، وسمي باليوم الآخر لتأخره عن الدنيا وله أسماء كثيرة في القرآن منها.

١ ـ يوم البعث: لأن فيه البعث والحياة بعد الموت.
٢ ـ يوم الخروج: لأن فيه خروج الناس من قبورهم إلى الحياة الآخرى.
٣ ـ يوم القيامة: لأن فيه قيام الناس للحساب.
٤ ـ يوم الدين: لأن فيه إدانة الخلائق ومجازاتهم على أعمالهم.

٥ ـ يوم الفصل : لأن فيه الفصل بين الناس بالعدل.
٦ ـ يوم الحشر : لأن فيه جمع الخلائق وحشرهم في موقف الحساب.
٧ ـ يوم الجمع : لأن الله يجمع فيه الناس للجزاء.
٨ ـ يوم الحساب : لأن فيه محاسبة الناس على أعمالهم التي عملوها في الدنيا.
٩ ـ يوم الوعيد : لأن فيه تحقيق وعيد الله للكافرين.
١٠ ـ يوم الحسرة : لأن فيه حسرة الكافرين.
١١ ـ يوم الخلود : لأن الحياة في هذا اليوم حياة خالدة أبدية.
١٢ ـ الدار الآخرة : لأنها بعد دار الدنيا وهي دار باقية ليس بعدها انتقال إلى دار أخرى.
١٣ ـ دار القرار : لأنها الاستقرار الدائم بلا فناء ولا انتقال.
١٤ ـ دار الخلد : لأن الإقامة فيها إقامة أبدية.
١٥ ـ الواقعة : لتحقيق وقوعها.
١٦ ـ الحاقة : لأنها تحق كل مجادل ومخاصم بالباطل بمعنى تغلبه.
١٧ ـ القارعة : لأنها تقرع الأسماع والقلوب بأهوالها.
١٨ ـ الغاشية : لما يجري فيها من غشيان عام للثقلين.
١٩ ـ الطامة : لأنها تغلب وتفوق ما سواها من الدواهي.
٢٠ ـ الآزفة : أي القريبة سميت بذلك إشعاراً بقربها بالنسبة إلى عمر الدنيا.
٢١ ـ يوم التغابن : لأن أهل الجنة يغبنون أهل النار.
٢٢ ـ يوم التناد : لأنه يدعى فيه كل أناس بإمامهم وينادي بعضهم بعضا، وينادي أهل الجنة أهل النار، وأهل النار أهل الجنة، وينادي أصحاب الأعراف.

ومن مقدمات اليوم الآخر الموت وهو القيامة الصغرى. .

والقيامة الصغرى: هي وفاة كل شخص عند انتهاء أجله، وبها ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، وقد ذكر الله العباد بالموت ليستعدوا له بالأعمال الصالحة والتوبة من الأعمال السيئة، لأنه إذا جاء ختم عمل الإنسان وهو لا يقبل التأخير، قال تعالى:

﴿يـاأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون، وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون﴾(المنـافقون ٩ ـ ١١) وقال تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾، والموت هو القيامة الصغرى، وقيام الساعة هو القيامة الكبرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

وهو سبحانه وتعالى في السورة الواحدة يذكر القيامة الكبرى والصغرى كما في سورة الواقعة، فإنه ذكر في أولها القيامة الكبرى، وأن الناس يكونون أزواجاً ثلاثة كما قال تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة، إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا، فكانت هباء منبثا، وكنتم أزواجا ثلاثة﴾ (الواقعة/١ ـ ٧).

ثم إنه في آخرها ذكر القيامة الصغرى بالموت وأنهم يكونون ثلاثة أصناف بعد الموت فقال: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين، ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأمـا إن كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم وتصلية جحيم﴾(الـواقعة ٨٣ ـ ٩٤) وعند الموت تقبض روح الإنسان من جسده بأمر الله تعالى.

وقد أسند الله قبض الأنفس إليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ (الزمر: ٤٢) وأسنده إلى الملائكة في قوله: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ (الأنعام / ٦١) وفي قوله: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ (الأنفال / ٥٠) وأسنده إلى ملك الموت في قوله: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الـذي وكـل بكم﴾ (السجـدة/ ١١) ولا تعـارض بين الآيات، والإضـافـة في هذه الآيات إلى كل بحسبـه، فالله هو الـذي قضى بالمـوت وقـدره، فهـو بقضائه وقدره

عذاب القبر ونعيمه

مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب، فأهل السنة والجماعة يتفقون على أن النفس تنعم وتعذب منفردة عن البدن وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها. فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعين كما يكون ذلك على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون النعيم والعذاب على البدن بدون الروح هذا فيه قولان مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام.

أدلة عذاب القبر ونعيمه من القرآن الكريم:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾(الأنعام / ٩٣). وهذا خطاب لهم عند الموت. وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم اليوم تجزون. فدل على أن المراد به عذاب القبر.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون. يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون. وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (الطور ٤٥ ـ ٤٧). وهذا يحتمل عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا. وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا. وقد يقال وهو أظهر أن من مات منهم عذب في البرزخ ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ.

٣ ـ ومنها قوله: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد

العذاب﴾ (غافر ٤٥-٤٦). فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً لا يحتمل غيره. فدل على ثبوت عذاب القبر.

٤ - قال الله تعالى: ﴿**فلولا إذا بلغت الحلقوم. وأنتم حينئذ تنظرون. ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون. فلولا إن كنتم غير مدينين. ترجعونها إن كنتم صادقين. فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من أصحاب اليمين. وأما إن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم وتصلية جحيم**﴾ (الواقعة ٨٣- ٩٤) فذكر ههنا أحكام الأرواح عند الموت. وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية إذ هي أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام.

أدلة عذاب القبر من السنة النبوية:

إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن. وأحاديث عذاب القبر كثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومنها:

١ - ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال: (إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول. وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم دعا بجريدة فشقها نصفين فقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا).

٢ - في صحيح مسلم عن زيد بن ثابت قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار على بغلته ونحن معه إذ حادت به فكادت تلقيه فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال من يعرف أصحاب هذه القبور فقال رجل أنا. قال فمتى مات هؤلاء. قال في الإشراك. فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه) الحديث.

٣ - في صحيح مسلم وجميع السنن عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر. ومن فتنة المحيا والممات. ومن فتنة المسيح الدجال.

٤ - في الصحيحين عن أبي أيوب قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال يهود تعذب في قبورها.

٥ - وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليَّ عجوز من عجائز يهود المدينة فقالت: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، قالت فكذبتها ولم أنعم أن أصدقها قالت: فخَرَجَتْ ودخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن عجوزاً من عجائز يهود أهل المدينة دخلت فزعمت أن أهل القبور يعذبون في قبورهم قال: صدقت إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم كلها، قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر.

تنبيه هام:

وعذاب القبر وسؤال الملكين ينالان كل من مات ولو لم يدفن فهو اسم لعذاب البرزخ ونعيمه وهو ما بين الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (المؤمنون / ١٠٠) وسمى عذاب القبر باعتبار الغالب فالمصلوب والمحرق والمغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما، فقد ظن بعض الأوائل أنه إذا حرق جسده بالنار وصار رماداً وذري بعضه في البحر وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه ينجو من ذلك فأوصى بنيه أن يفعلوا به ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ثم قال قم فإذا هو قائم بين يدي الله فسأله ما حملك على ما فعلت فقال: خشيتك يا رب وأنت أعلم، فرحمه الله، فلم يفت عذاب البرزخ ونعيمه لهذه الأجزاء التي صارت في هذه الحال. حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهاب الرياح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه. ولو دفن الرجل الصالح في أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه فيجعل الله النار على هذا برداً وسلاماً، والهواء على ذلك ناراً أو سموماً فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها وخالقها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصي منها شيء أراده بل هي طوع أمره ومشيئته

منقادة لقدرته. فغير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق ونحن لا نشعر بها لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود. فهذا المغمى عليه والمسكور والمبهوت أحياء وأرواحهم معهم ولا تشعر بحياتهم. ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالاً بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة. وإذا كان الله تعالى قد جعل في الجمادات شعوراً وإدراكاً تسبح ربها به وتسقط الحجارة من خشيته وتسجد له الجبال والشجر وتسبحه الحصى والمياه والنبات كما قال تعالى: ﴿**وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم**﴾(الإسراء / ٤٤) فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الأرواح والحياة أولى بذلك، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح فتكلم ومشى وأكل وشرب وتزوج وولد له: ﴿**الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم**﴾ (البقرة / ٢٤٣) ﴿**أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم**﴾ (البقرة / ٢٥٩)، وكقبيل بني أسرائيل الذين قالوا لموسى: ﴿**لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة**﴾ (البقرة / ٥٥) فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم وكأصحاب الكهف وقصة إبراهيم في الطيور الأربعة فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة يقضي بها أمره فيها ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود.

المنكرون لعذاب القبر ونعيمه وشبهتهم والرد عليهم:

أنكرت الملاحدة والزنادقة عذاب القبر ونعيمه وقالوا: إنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة يضربون الموتى ولا حياة ولا ثعابين ولا نيران تأجج. وكيف يفسح مد بصره أو يضيق عليه ونحن نجده بحاله ونجد مساحته على حد ما حفرناه له ولم يزد ولم ينقص. وكيف يصير القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

وجوابنا عن ذلك من وجوه:

أولاً : أن حال البرزخ من الغيوب التي أخبرت بها الأنبياء ولا يكون خبرهم محالاً في العقول أصلاً فلا بد من تصديق خبرهم.

ثانياً : أن النار في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهد ذلك من شاهد نار الدنيا وخضرها. وإنما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشد من نار الدنيا فلا يحس بها أهل الدنيا فإن الله سبحانه يحمي عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بذلك. وقدرة الرب أوسع من ذلك وأعجب. وإذا شاء الله أن يطلع بعض العباد على عذاب القبر أطلعه وغيبه عن غيره إذ لو اطلع العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس. كما في الصحيحين في الحديث الذي مر من قوله صلى الله عليه وسلم: (لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع) ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعت ذلك وأدركته كما حادت برسول الله صلى الله عليه وسلم بغلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب في قبره. فرؤية هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجن تقع أحياناً لمن شاء الله أن يريه ذلك. وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويقر بقدرته أن يحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها. والعبد أضعف بصراً وسمعاً أن يثبت لمشاهدة عذاب القبر. وسر المسألة أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود في هذا العالم. والله سبحانه إنما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها. فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الإقرار به والإيمان به سبباً لسعادتهم. فإذا كشف عنهم الغطاء صار عياناً مشاهداً. فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألاه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه. وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه المستيقظ فيعذب في النوم ويضرب ويألم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة.

قال شيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله :

فأما أحاديث عذاب القبر ومسألة منكر ونكير فكثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل ما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبرين فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله، ثم دعا بجريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا يا رسول الله لم فعلت هذا قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا، وفي صحيح مسلم وسائر السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليقل أعوذ بالله من أربع: «من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».

وساق الشيخ أحاديث كثيرة في هذا الباب. إلى أن قال: وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ذلك والإيمان به ولا نتكلم عن كيفيته إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له في هذه الدار.

والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا، إلى أن قال: واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من اجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصد من الهدى والبيان. فكم حصل من إهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله. إلى أن قال: فالحاصل أن الدور ثلاث:

«دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها

وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيـــام النـاس من قبـورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً. فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار مطابق للعقل وأنه حق لا مرية فيه وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم. ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه والتي تحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها. بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا في حفرة من النار، وهذا في روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب. ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً، وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير، وإذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيبه عن غيره، ولـو اطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب. ولما تدافن الناس كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع.

أسباب عذاب القبر

قال العلامة السفاريني: الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور على قسمين: «مجمل . . . ومفصل».

أما المجمل: فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وعدم إطاعتهم لأمره وارتكابهم معاصيه. فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامتثلت أمره وأجتنبت نهيه ولا بدناً كانت فيه أبداً، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار بارتكاب مناهيه ولم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البـرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب. وأما

المفصل فقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما أن أحدهما كان يمشي بالنميمة بين الناس والآخر كان لا يستتر من البول، ثم ذكر من يعذب لكونه صلى بغير طهور ومن مر على مظلوم فلم ينصره، ومن يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به في النهار، وتعذيب الزناة والزواني وأكلة الربا، والذين تتثاقل رؤوسهم عن صلاة الفجر وتعذيب الذين يمنعون الزكاة والذين يوقدون الفتنة بين الناس والجبارين والمتكبرين والمرائين والهمازين واللمازين، وقد أنكر الملاحدة والزنادقة عذاب القبر ونعيمه اعتماداً على عقولهم وحواسهم لأنهم لا يشاهدون شيئاً من ذلك إنتهى.

ونرد عليهم بأن عذاب القبر من علم الغيب الذي يعتمد فيه على النصوص الصحيحة وليس للعقل ولا الفكر دخل فيه. وأحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا وعدم إدراك الإنسان للشيء لا يدل على عدم وجوده. والله أعلم.

البعث والنشور

اعلم أن وقوع البعث من القبور قد دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة، أخبر الله عنه في كتابه العزيز، وأقام عليه الدليل ورد على منكريه في آيات كثيرة من القرآن العظيم، وقد أخبرت عنه جميع الأنبياء أممها وطالبت المنكرين بالإيمان به، ولما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وكان قد بعث هو والساعة كهاتين بيَّن تفصيل الآخرة تفصيلاً لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء قبله. والقيامة الكبرى معروفة عند جميع الأنبياء من آدم إلى نوح إلى إبراهيم وموسى، وعيسى وغيرهم عليهم الصلاة والسلام وقد أخبر الله من حين أهبط آدم بالقيامة فقال تعالى: ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾(البقرة / ٣٦) وقال: ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ (الأعراف / ٢٥) ولما قال إبليس اللعين: ﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم﴾ (الحجر ٣٦ - ٣٨).

ونوح عليه السلام قال لقومه: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتا. ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾ (نوح / ١٧).

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ (الشعراء / ٨٢) وموسى عليه السلام قال الله له: ﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ (طه ١٥ ـ ١٦) وقال موسى في دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾ (الأعراف / ١٥٦).

وقد أخبر الله أن الكفار إذا أدخلوا النار يقرون أن رسلهم أنذرتهم هذا اليوم كما في قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ (الزمر / ٧١).

فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه. وقد أخبر الله تعالى أن الموتى يقومون من قبورهم إذا نفخ في الصور النفخة الثالثة، قال تعالى: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ (الزمر / ٦٨) وقال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾ (يس / ٥١).

قال السفاريني: وفي تفسير الثعلبي عن أبي هريرة رضي الله عنه في تفسير سورة الزمر مرفوعاً: إن الله يرسل مطراً على الأرض فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم أثني عشر ذراعاً فيأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل، فإذا تكاملت أجسادهم كما كانت قال الله تعالى: (ليحيى حملة العرش ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل)، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً والأخرى ظلمة فيقبضها جميعاً ثم يلقيها في الصور، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ثم يقول الله تعالى: (وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها فتدخل الأرواح من الخياشيم ثم تمشي مشي السم في اللديغ، ثم تنشق

الأرض عنها سراعاً، فأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون).

وأخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عُظَيْم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة).

وفي روايات مسلم: (إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً منه يركب الخلق يوم القيامة قالوا: أي عظم هو يا رسول الله، قال عجب الذنب)، قال العلماء وعجب الذنب هو العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب، وقد جاء في الحديث أنه مثل حبة الخردل منه ينبت جسم الإنسان؛ وقد استبعد المشركون إعادة الناس في حياة أخرى بعد الموت فأنكروا البعث والنشور. فأمر الله نبيه أن يقسم به على وقوعه وأنه كائن لا محالة فقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب﴾ (سبأ / ٣) وقال تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ (يونس / ٥٣) وقال تعالى: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ (التغابن / ٧).

وأخبر عن اقتراب ذلك فقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾(القمر / ١) ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ (الأنبياء / ١) وذم المكذبين بالبعث فقال: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ (يونس / ٤٥) ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ (الشورى / ١٨) ﴿ونحشرُهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً. أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾ (الإسراء ٩٧ ـ ٩٩) وقال: ﴿وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديدا﴾ (الإسراء/٤٩) فرد الله عليهم بقوله: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً. أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إلـ ك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون

قريباً يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ (الاسراء ٥٠-٥٢)
قال شارح الطحاوية على هذه الآيات الكريمة: فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل، فإنهم قالوا أولا: ﴿أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أءنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ (الاسراء / ٤٩) فقيل لهم في جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم فهلا كنتم خلقاً لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وما هو أكبر في صدوركم من ذلك. فإن قلتم كنا خلقنا على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً، وللحجة تقدير آخر هو: لو كنتم حجارة أو حديداً أو خلقاً أكبر منهما فإنه قادر على أن يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف في هذه الأجسام مع شدتها وصلابتها بالإفناء والإحالة فما الذي يعجزه فيما دونها، ثم أخبر أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم: ﴿من يعيدنا﴾ إذا فنيت جسومنا واستحالت فأجابهم بقوله: ﴿قل الذي فطركم أول مرة﴾ فلما أخذتهم الحجة انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به تعلل المنقطع وهو قولهم ﴿متى هو﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قل عسى أن يكون قريباً﴾.

١ - الحساب:

الحساب هو تعريف الله سبحانه الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه، قال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه﴾ (المجادلة / ٦) ﴿ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا﴾ (الكهف / ٤٩) ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزله / ٧-٨).

ومن الحساب إجراء القصاص بين العباد فيقتص للمظلوم من الظالم كما في صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء).

والحساب متفاوت فمنه الحساب العسير ومنه الحساب اليسير. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: يحاسب الله تعالى الخلق ويخلو بعبده المؤمن ويقرره بذنوبه كما وصف ذلك في الكتاب والسنة، وأما الكفار فلا يحاسبون محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى فيوقفون عليها ويقررون بها. انتهى.

وأول ما يحاسب عنه العبد صلاته، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء. كما في الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه أبو داود والحاكم وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة يقول الله تعالى لملائكته انظروا لصلاة عبدي أتمها أم نقصها، فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان نقص منها شيئاً قال الله انظروا هل لعبدي من تطوع فإن كان له تطوع قال أتموا لعبدي فريضته من تطوعه). ثم تؤخذ الأعمال على ذلك) وأخرج النسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أول ما يحاسب عليه العبد صلاته) .

٢ ـ اعطاء الصحائف :

الصحائف: هي الكتب التي كتبتها الملائكة وأحصوا فيها ما فعله كل إنسان في الحياة الدنيا من الأعمال القولية والفعلية قال تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ (الاسراء / ١٣ ـ ١٤).

قال العلماء: طائره عمله، ومنهم من يعطى كتابه بيمينه ومنهم من يعطى كتابه بشماله، قال تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه﴾ (الحاقة / ١٩) إلى قوله: ﴿كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. ثم قال سبحانه: ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه﴾ إلى قوله: ﴿خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه﴾ .

٣ ـ وزن الأعمال :

مما يكون في هذا اليوم وزن الأعمال، قال تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ (الأعراف ٨ ـ ٩)، وقال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ (الأنبياء / ٤٧) فالأعمال توزن بميزان حقيقي له لسان وكفتان .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: الميزان هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مثل قوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه﴾، وقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ ثم ساق بعض الأحاديث التي فيها وزن الأعمال ثم قال: وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين يبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس، فهو مما به يتبين العدل.

والمقصود بالوزن العدل كموازين الدنيا، وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب . . انتهى.

٤ - الصراط والمرور عليه :

ومما يكون في يوم القيامة المرور على الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم يرده الأولون والآخرون يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، وهو أدق من الشعر وأحد من السيف، وأشد حرارة من الجمر، عليه كلاليب تخطف من أمرت بخطفه، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كهرولة الراجل ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يزحف زحفاً ومنهم من يخطف فيلقى في جهنم. نسأل الله السلامة والعافية.

قال السفاريني: اتفقت الكلمة على اثبات الصراط في الجملة لكن أهل الحق يثبتونه على ظاهره من كونه جسراً ممدوداً على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعر، وأنكر هذا الظاهر القاضي عبدالجبار المعتزلي وكثير من أتباعه زعماً منهم أنه لا يمكن عبوره، وإن أمكن ففيه تعذيب ولا عذاب على المؤمنين والصلحاء يوم القيامة، وإنما المراد طريق الجنة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿سيهديهم ويصلح بالهم﴾ (محمد / ٥) وطريق النار المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ (الصافات / ٢٣) ومنهم من حمله على الأدلة الواضحة والمباحات والأعمال الرديئة ليسأل عنها ويؤاخذ بها، وكل هذا باطل وخرافات، لوجوب رد النصوص إلى حقائقها، وليس العبور على الصراط بأعجب من المشي على الماء أو الطيران في الهواء أو الوقوف فيه، وقد أجاب صلى الله عليه وسلم عن سؤال حشر الكافر على وجهه بأن القدرة صالحة لذلك. . انتهى. .

٥ ـ الحـــوض :

قال الحافظ السيوطي ورد ذكر الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابياً منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحفاظ الصحابة المكثرون وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين انتهى .

وأخرج الشيخان وغيرهما من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حوض مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه لا يظمأ أبداً) .

وروى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقال : (إنه أنزلت عليّ آنفاً سورة ، فقرأ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر﴾ حتى ختمها قال : هل تدرون ما الكوثر، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير، ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب إنه من أمتي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك) ومعنى يختلج : يطرد عن ورود الحوض .

قال القرطبي : قال علماؤنا كل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به فهو من المطرودين عن الحوض ، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين كالخوارج والروافض والمعتزلة على اختلاف فرقهم . فهؤلاء كلهم مبدلون ، وكذا الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وإذلال أهله والمعلنون بكبائر الذنوب المستخفون بالمعاصي ، وجماعة أهل الزيغ والبدع ، ثم الطرد قد يكون في حال ثم يقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد . . انتهى . . وقد خالفت المعتزلة فلم تقل بإثبات الحوض مع ثبوته بالسنة الصحيحة الصريحة فكل من خالف في اثباته فهو مبتدع وأحرى أن يطرد عنه .

٦ ـ الشـــفاعـة :

الشفاعة : لغة الوسيلة والطلب ، وعرفاً سؤال الخير للغير . وقيل هي من الشفع

الذي هو ضد الوتر، فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له ـ والشفاعة حق إذا تحققت شروطها: وهي أن تكون بإذن الله تعالى ورضاه عن المشفوع له. قال الله تعالى: ﴿**وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى**﴾ (النجم / ٢٦) ففي هذه الآية الكريمة أن الشفاعة لا تنفع إلا بشرطين:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، لأن الشفاعة ملكه سبحانه: ﴿**قل لله الشفاعة جميعاً**﴾.

الثاني: رضاه عن المشفوع فيه بأن يكون من أهل التوحيد لأن المشرك لا تنفعه الشفاعة، كما قال تعالى: ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾ فتبين بهذا بطلان ما عليه القبوريون اليوم الذين يطلبون الشفاعة من الأموات ويتقربون إليهم بأنواع القربات، كما قال الله في سلفهم: ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾ (يونس / ١٨).

وقال تعالى: ﴿**أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض**﴾ (الزمر / ٤٣) وقد أعطي نبينا صلى الله عليه وسلم الشفاعة فيشفع لمن أذن الله له فيه قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات:

أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم الشفاعة حتى تنتهي إليه.

وأما الشفاعة الثانية: فيشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة وهاتان الشفاعتان خاصتان له.

وأما الشفاعة الثالثة: فيشفع فيمن استحق النار وهذه الشفاعة له ولسائر النبيين والصديقين وغيرهم، فيشفع فيمن استحق النار أن لا يدخلها. ويشفع فيمن دخلها

أن يخرج منها، وقال رحمه الله، وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم، وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية، وقال هؤلاء من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها، وعند هؤلاء ما ثم الا من يدخل الجنة فلا يدخل النار، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب. إلى أن قال: واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: ﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل﴾. (البقرة / ٤٨) وبقوله: ﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ (البقرة / ٢٥٤) وبقوله: ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾، (غافر / ١٨) وبقوله: ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾(المدثر / ٤٨).

وجواب أهل السنة: أن هذا يراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين كما قال تعالى: ﴿ما سلككم في سقر، قالوا لم نك من المصلين، ولم نك نطعم المسكين، وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين. حتى أتانا اليقين، فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ (المدثر ٤٢ ـ ٤٨) فهؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا.

والثاني: أنه يراد بذلك الشفاعة التي يثبتها أهل الشرك ومن شابههم من أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه كما يشفع الناس في بعضهم عند بعض.

٧ ـ الجنة والنار:

وفي يوم القيامة الداران العظيمتان اللتان لا تفنيان: الجنة والنار. فالجنة دار المتقين، والنار دار الكافرين، قال تعالى: ﴿إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم﴾ (الانفطار / ١٣ـ ١٤) وهما مخلوقتان موجودتان الآن، كما قال تعالى في الجنة: ﴿أعدت للمتقين﴾ وقال في النار: ﴿أعدت للكافرين﴾ وغير ذلك من النصوص التي تدل على وجودهما الآن وأنهما باقيتان لا تفنيان ـ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

قال شارح الطحاوية : مما ينبغي أن يعلم أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه وهو العمل الصالح فإنه قال: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ (طه / ١١٢) وكذلك لا يعاقب أحدا إلا بعد حصول سبب العقاب فإن الله تعالى يقول: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ (الشورى / ٣٠) وهو سبحانه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع . . انتهى.

والأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة، والأعمال السيئة سبب لدخول النار. نسأل الله الجنة ونعوذ به من النار. إنه سميع مجيب الدعاء.

الأصل السادس

الإيمان بالقضاء والقدر

لا شك أن إثبات القضاء والقدر ووجوب الإيمان بهما وبما تضمناه من أعظم أركان الإيمان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره) وقال تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾.

والقدر : مصدر قدرت الشيء إذا أحطت بمقداره والمراد هنا: تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها أزلاً قبل وجودها، فلا يحدث شيء إلا وقد علمه الله وقدره وأراده، ومذهب أهل السنة والجماعة هو الإيمان بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات :

الأولى: الإيمان بعلم الله الأزلي بكل شيء قبل وجوده ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها .

الثانية : الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

الثالثة : الإيمان بمشيئة الله الشاملة لكل حادث وقدرته التامة عليه .

الرابعة : الإيمان بإيجاد الله لكل المخلوقات وأنه الخالق وحده وما سواه مخلوق .

ومن أدلة المرتبة الأولى والثانية : قوله تعالى: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾(الحج / ٧٠) .

ومن أدلة المرتبة الثالثة قوله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ وقوله تعالى: ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾.

من أدلة المرتبة الرابعة: قوله تعالى: ﴿الله خالق كل شيء﴾ وقوله تعالى: ﴿وهو الخلاق العليم﴾.

والتقدير نوعـان :

تقدير عام شامل لكل كائن وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، فقد كتب الله فيه مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة. كما في الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أول ما خلق الله القلم قال له اكتب. قال: وما أكتب، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة). وهذا التقدير يعم جميع المخلوقات.

وتقدير مفصل للتقدير العام وهو أنواع :

١ ـ النوع الأول : التقدير العمري كما في حديث ابن مسعود في شأن ما يكتب على الجنين وهو في بطن أمه من كتابة أجله ورزقه وعمله وشقاوته أو سعادته.

٢ ـ النوع الثاني : التقدير الحولي وهو ما يقدر في ليلة القدر من وقائع العام كما قال تعالى: ﴿فيها يفرق كل أمر حكيم﴾.

٣ ـ النوع الثالث : التقدير اليومي وهو ما يقدر من حوادث اليوم من حياة وموت وعز وذل إلى غير ذلك كما في قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾.

ولابد للمسلم من الإيمان بالقدر العام وتفاصيله. فمن جحد شيئاً منها لم يكن مؤمناً بالقدر، ومن لم يؤمن بالقدر فقد جحد ركناً من أركان الإيمان، كما عليه الفرقة القدرية الضالة التي تنكر القدر، وهم في هذا الإنكار على قسمين :

القسم الأول : القدرية الغلاة الذين ينكرون علم الله بالأشياء قبل كونها وينكرون كتابته لها في اللوح المحفوظ، ويقولون أن الله أمر ونهى وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه فالأمر أنف. أي مستأنف لم يسبق في علم الله وتقديره وهذه الفرقة قد انقرضت أو كادت.

القسم الثاني: تقر بالعلم ولكنها تنفي دخول أفعال العباد في القدر وتزعم أنها مخلوقة لهم استقلالاً لم يخلقها الله ولم يردها وهذا مذهب المعتزلة. وقابلتهم طائفة غلت في إثبات القدر حتى سلبوا العبد قدرته واختياره وقالوا أن العبد مجبر على فعله. ولذلك سموا بالجبرية وكلا المذهبين باطل لأدلة كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ (التكوير ٢٨ - ٢٩) لأن قوله تعالى: ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ يرد على الجبرية لأن الله أثبت للعباد مشيئة، وهم يقولون أنهم مجبورون لا مشيئة لهم. وقوله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ . فيه الرد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله. وهذا قول باطل لأن الله علق مشيئة العبد على مشيئته سبحانه ربطها بها وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في هذه القضية فلم يُفَرِّطوا تفريط القدرية النفاة، ولم يُفْرِطوا إفراط الجبرية الغلاة . فمذهب سلف الأمة وأئمتها أن جميع أنواع الطاعات والمعاصي والكفر والفساد واقع بقضاء الله وقدره لا خالق سواه. فأفعال العباد مخلوقة لله خيرها وشرها حسنها وقبيحها والعبد غير مجبور على أفعاله بل هو قادر عليها وقاصد لها وفاعل لها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الأعمال والأقوال والطاعات والمعاصي هي من العبد بمعنى أنها قائمة بالعبد وحاصلة بمشيئته وقدرته وهو المتصف بها والمتحرك بها الذي يعود حكمها عليه، وهي من الله بمعنى أنه خلقها قائمة بالعبد وجعلها عملاً له وكسباً. كما يخلق المسببات بأسبابها، فهي من الله مخلوقة له، ومن العبد صفة قائمة به واقعة بقدرته وكسبه. كما إذا قلنا هذه الثمرة من الشجرة، وهذا الزرع من الأرض بمعنى أنه حدث منها، ومن الله بمعنى أنه خلقه منها لم يكن بينهما تناقض. . انتهى.

وقال السفاريني: والحاصل أن مذهب أهل السلف ومحققي أهل السنة أن الله تعالى خلق قدرة العبد وإرادته وفعله، وأن العبد فاعل لفعله حقيقة ومحدث لفعله. والله سبحانه جعله فاعلاً له محدثاً له، قال تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾. فأثبت مشيئة العبد وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئة الله، وهذا صريح قول أهل السنة في إثبات مشيئة العبد وأنها لا تكون إلا بمشيئة الله.. انتهى. وأقول: أن مما يؤيد هذا أن الله أعطى الإنسان عقلاً وقدرة واختياراً ولا يحتسب فعله له أو عليه إلا إذا توفرت فيه هذه القوى.

فالمجنون والمعتوه أو المكره لا اعتبار لما يصدر منهم من الأقوال والأفعال ولا يؤاخذون عليها، مما يدل على أنه ليس بمجبر ولا مستقل بنفسه، والله المستعان.

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

إن من أعظم ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر صحة إيمان الشخص بتكامل أركانه، لأن الإيمان بذلك من أركان الإيمان الستة التي لا يتحقق إلا بها كما دل على ذلك الكتاب والسنة، ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر طمأنينة القلب وارتياحه وعدم القلق في هذه الحياة عندما يتعرض الإنسان لمشاق الحياة، لأن العبد إذا علم أن ما يصيبه فهو مقدر لا بد منه ولا راد له. واستشعر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك) فإنه عند ذلك تسكن نفسه ويطمئن باله، بخلاف من لا يؤمن بالقضاء والقدر فإنه تأخذه الهموم والأحزان ويزعجه القلق حتى يتبرم بالحياة ويحاول الخلاص منها ولو بالانتحار كما هو مشاهد من كثرة الذين ينتحرون فراراً من واقعهم وتشاؤماً من مستقبلهم لأنهم لا يؤمنون بالقضاء والقدر، فكان تصرفهم ذلك نتيجة حتمية لسوء اعتقادهم، وقد قال الله تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ (الحديد ٢٢ - ٢٣) فأخبرنا سبحانه أنه قدر ما يجري من المصائب في الأرض وفي الأنفس، فهو مقدر ومكتوب لا بد من وقوعه مهما حاولنا دفعه. ثم بين

أن الحكمة من إخباره لنا بذلك لأجل أن نطمئن فلا نجزع ونأسف عند المصائب ولا نفرح عند حصول النعم فرحاً ينسينا العواقب بل الواجب علينا الصبر عند المصائب وعدم اليأس من روح الله. والشكر عند الرخاء وعدم الأمن من مكر الله، ونكون مرتبطين بالله في الحالتين قال عكرمة رحمه الله : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن جعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً .

وليس معنى هذا أن العبد لا يتخذ الأسباب الواقية من الشر والجالبة للخير وإنما يتكل على القضاء والقدر كما يظن بعض الجهال، هذا من أكبر الغلط والجهل ـ فإن الله أمرنا باتخاذ الأسباب ونهانا عن التكاسل والإهمال، ولكن إذا اتخذنا السبب وحصل لنا عكس المطلوب فعلينا أن لا نجزع لأن هذا هو القضاء المقدر ولو قدر غيره لكان ـ ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تجزعن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان) رواه مسلم. وعلى العبد مع هذا أن يحاسب نفسه ويصحح أخطاءه فإنه لا يصيبه شيء إلا بسبب ذنوبه، قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾(الشورى / ٣٠). ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر الثبات عند مواجهة الأزمات واستقبال مشاق الحياة بقلب ثابت ويقين صادق لا تزلزله الأحداث ولا تهزه الأعاصير، لأنه يعلم أن هذه الحياة دار ابتلاء وامتحان وتقلب. كما قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (الملك / ٢) وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم﴾(محمد / ٣١).

كم جرى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى صحابته من المحن والشدائد، لكنهم واجهوها بالإيمان الصادق والعزم الثابت حتى اجتازوها بنجاح باهر، وما ذاك إلا لإيمانهم بقضاء الله وقدره واستشعارهم لقوله تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾(التوبة / ٥١).

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر تحويل المحن إلى منح والمصائب إلى أجر. كما

قال تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾(التغابن / ١١).

قال علقمة هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. . ومعنى الآية الكريمة: من أصابته مصيبة فعلم أنها من قدر الله فصبر واجتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف الله عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه، وهذا في نزول المصائب التي هي من قضاء الله وقدره لا دخل للعبد في إيجادها إلا من ناحية أنه تسبب في نزولها به حيث قصر في حق الله عليه بفعل أمره وترك نهيه فعليه أن يؤمن بقضاء الله وقدره ويصحح خطأه الذي أصيب بسببه.

وبعض الناس يخطئون خطأ فاحشاً عندما يحتجون بالقضاء والقدر على فعلهم للمعاصي وتركهم للواجبات. ويقولون هذا مقدر علينا ولا يتوبون من ذنوبهم، كما قال المشركون: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ (الأنعام / ١٤٨). وهذا فهم سيىء للقضاء والقدر لأنه لا يحتج بهما على فعل المعاصي والمصائب وإنما يحتج بها على نزول المصائب، فالاحتجاج بها على فعل المعاصي قبيح. لأنه ترك للتوبة وترك للعمل الصالح المأمور بهما، والاحتجاج بها على المصائب حسن لأنه يحمل على الصبر والاحتساب.

ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر أنه يدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والقوة والشهامة، فالمجاهد في سبيل الله يمضي في جهاده ولا يهاب الموت لأنه يعلم أن الموت لا بد منه وأنه إذا جاء لا يؤخر، لا يمنع منه حصون ولا جنود ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾(النساء / ٧٨)، ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ (آل عمران / ١٥٤) وهكذا حينما يستشعر المجاهد هذه الدفعات القوية من الإيمان بالقدر يمضي في جهاده حتى يتحقق النصر على الأعداء وتتوفر القوة للإسلام والمسلمين.

وكذلك بالإيمان بالقدر يتوفر الانتاج والثراء، لأن المؤمن إذا علم أن الناس لا

النهي عن البدع في الدين وذم المبتدعين

تعريف البدع:

البدع: جمع بدعة، وهي في اللغة: الأمر المستحدث، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أي: لم يأت بجديد لم يأتوا به.

وشرعاً: هو الأمر المستحدث في الدين.

أقسام البدع:

وهي على قسمين[1]:

القسم الأول: بدعة حقيقة: وهي ما استحدث في الدين أصلاً ووصفاً، وذلك كالطواف حول القبور وإسراجها ونحو ذلك.

القسم الثاني: بدعة إضافية: وهي ما استحدث في الدين بوصفه دون أصله، وذلك كالذكر الجماعي بصوت واحد، فإن أصل مشروعية الذكر جاء الشرع بها ولكنه على هذه الصفة لم يرد شرعاً.

حكم البدع في الدين:

والبدع بنوعيها مذمومة شرعاً، كما قال ﷺ: «من أحدث في أمرنا

---

(١) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص (٢٩٩) وما بعدها، انظر لوامع الأنوار السنية (١/ ١٧١ ـ ١٨٠) انظر الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية (١/ ٣٠٤، ٣٢٨) (١/ ٤٣٨ ـ ٤٥٦).

هذا ما ليس منه فهو رد». وقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»، وقد حذر ﷺ من البدع لخطرها على الدين، كما قال ﷺ: «وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

وأوضح أن المبتدع مغير للدين، محروم من الشرب من حوضه كما قال ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليختلجن رجال دوني فأقول: ربي أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

منهج السلف في التحذير من البدع والمبتدعين:

وبناء على ذلك حذر السلف من البدع والمبتدعين واتخذوا في ذلك عدة سبل نذكر منها:

أولاً: النهي عن سماع البدع، فقد حدث عبد الرزاق عن معمر قال: (كان طاوس جالساً وعنده ابنه فجاء رجل من المعتزلة فتكلم في شيء فأدخل طاوس أصابعه في أذنيه، وقال: يا بني، أدخل أصبعيك في أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئاً، فإن القلب ضعيف، ثم قال: أي بني، اسدد، فما زال يقول اسدد حتى قام الآخر أي المعتزلي).

ثانياً: هجر أهل البدع وعدم مجالستهم، فقد روى عيسى بن علي الضبي قال: (كان رجل معنا يختلف إلى إبراهيم (النخعي)، فبلغ إبراهيم أنه قد دخل في الإرجاء، فقال له إبراهيم: إذا قمت من عندنا فلا تعد).

ثالثاً: تعريف الناس بحال المبتدع والتنفير منه فقد روى محمد بن داود الحدائي قال: قلت لسفيان بن عيينة: (إن هذا يتكلم في القدر - يعني إبراهيم بن أبي يحيى - فقال سفيان: عرفوا الناس أمره وسلوا الله العافية).

رابعاً: البعد عن مكالمة أهل البدع، وهو نوع من الهجر، وهو الهجر اللساني، فقد روى سلام بن أبي مطيع قال: قال رجل من أهل الأهواء لأيوب: أكلمك بكلمة، قال: لا ولا نصف كلمة. وقال الحسن (لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا لهم).

خامساً: بيان خطر البدع على الدين، فقد قال سفيان الثوري: البدع أحب إلى إبليس من المعصية فالمعصية يثاب منها (أي يرجع) والبدعة لا يثاب منها.

وقال أيوب السختياني: (ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد من الله عزَّ وجل بعدا) وقال سفيان الثوري: (من سمع من مبتدع لم ينفعه الله بما سمعه، ومن صالحه فقد نقض الإسلام عروة عروة).

سادساً: ترك الصلاة على المبتدعين. قال مؤمل بن إسماعيل: مات عبد العزيز بن أبي رواد وكنت في جنازته حتى وضع عند باب الصفا، فصف الناس وجاء الثوري - أي سفيان الثوري - فقال الناس: جاء الثوري، فجاء حتى فرق الصفوف والناس ينظرون الجنازة ولم يصل عليه؛ لأنه كان يرمى بالإرجاء.

سابعاً: استباحة غيبة المبتدع، فعن الأعمش عن إبراهيم قال: (وليس لصاحب بدعة غيبة)، وقال الحسن: (ليس لأهل البدع غيبة)، وقال كثير بن أبي سهل: يقال: (أهل الأهواء لا حرمة لهم)، وقال الفضيل: (من دخل على صاحب بدعة فليس له حرمة).

الجواب عن بعض شبه المبتدعين:

هذا وليس في البدع في الشرع ما يمدح، فإن الرسول قد نص على أن كل بدعة ضلالة ولم يستثن شيئاً من البدع. وأما قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في التراويح في رمضان: نعمت البدعة هذه. فمعناه من وجهين[1]:

الأول: أن ذلك سيق في مواجهة المنكر لها لأنها كانت موجودة في عصر النبي ﷺ، وقد فعلها ثم تركها خشية الفرض على الأمة، وقد زال فهو كقولك لمن عارضك في أمر: إن كان هذا منكراً فأنا صاحب منكر، تقصد الإخبار عن تمسكك به.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص (٢٧٦).

الثاني: أنه جاز إطلاق هذا اللفظ على التراويح لكونها تركت ثم فعلت فكانت مستجدة بالنسبة لكونها لم تفعل جماعة بعد موت الرسول ﷺ، فيكون قد جرى على معنى البدعة لغة لا شرعاً أيضاً، والمذموم هو البدعة في الشرع.

ومما تقدم أيضاً يتبين بطلان تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة، أو تقسيمها إلى مباحة ومحرمة وواجبة ومكروهة ومسنونة أو مستحبة[1].

خطر البدع في الدين:

والبدع خطرها يكمن في تغيير وجه الدين، وفتح الباب لها مؤذن بخطر تحريف الشريعة وتبديلها. الأمر الذي وقع فيه اليهود والنصارى حتى حرفوا دينهم وغيروه.

كما أن المبتدع مستدرك على صاحب الشرع مدع عدم كماله، والله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهي شرع ما لم يأذن به الله؛ الأمر الذي أنكره الله على المشركين، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

ولازم بدعة المبتدع تجويز التشريع لغير الله ورسوله، الأمر الذي قال الله فيه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي آية: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وإن كنا نقول: إن البدع ليست على درجة واحدة؛ منها ما هو كفر، ومنها ما هو شرك، ومنها ما هو محرم، وإن كانت تعتبر أكبر من كبائر الذنوب؛ ولذا فقد منع بعض السلف قبول توبة المبتدع. قال الحسن: (أبى الله تبارك وتعالى أن يأذن لصاحب هوى بتوبة).

كما أن الابتداع داخل في مسمى اتباع الهوى، كما قال ﷺ: «ألا إنه يخرج في أمتي قوم يهوون هوى يتجارى بهم ذلك الهوى كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يدع عرقاً ولا مفصلاً إلا دخله».

---

(١) نفس المرجع ص (٢٧٠، ٢٧١) وما بعدها.

وربنا سبحانه يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، فجعل اتباع مشتهيات النفس والميل إلى رغبات الطبع إلهاً من دون الله يعبد، والمبتدع، متبع للهوى، وهو نوع من شرك الطاعة حيث أطاع هواه ومال عما أمره الله من ترك الهوى واتباع الشرع، كما قال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ولأن الابتداع في الدين يزيد الفرقة بين الأمة، فهو أصل للسبل المخالفة للشرع والتي نهانا الله عن اتباعها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

ولأن كثرة البدع طريق لخفاء الحق وعدم ظهوره، وذلك لكثرة الشبهات التي تحيط بالقلوب بسبب البدع المخالفة لما أنزل الله. وهذه الأمور تؤدي بالتالي لضعف الأمة ولظلم بعضها بعضاً، وذلك بسبب التنازع الذي يزرع الأحقاد والبغضاء بين أفراد الأمة وطوائفها، ومن ثم ذهاب قوتها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

أسباب البدع في الدين

ومن أسباب البدع أمور أهمها:

١ ـ اتباع المتشابه من القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وترك المحكم كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾.

٢ ـ الترويج للأحاديث الضعيفة والموضوعة والقصص المكذوبة.

٣ ـ انتشار التصوف والصوفية.

٤ ـ الغلو في الدين في الأشخاص والأماكن والأزمان والاحتفالات.

٥ ـ الجهل بالدين وذلك بشرع ما لم يشرعه الله من العبادات.

٦ ـ التقليد الأعمى لبعض من يوصف بالصلاح والعلم.

أولاً: الشـــرك
خطـر الشرك على المعتقـد[1]

الشرك: هو أعظم ذنب عُصي الله به، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وقال ﷺ: «ألا أُخبركم بأكبر الكبائر: الشرك بالله..»؛ ولذا فإن من مات عليه خُلِّد في نار جهنم. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

وهو محبط للأعمال، كما قال سبحانه مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، وإذا كان خطابه لرسوله ﷺ هكذا فمن دونه من الناس أولى إذا ما وقع في شيء من الشرك. ومن وقع فيه أو كان عليه حَلَّ دمه وماله، ولم يُصَلَّ عليه، وما تركه بعد موته فيء إن كان مرتداً، ولا يرثه أقاربه من المسلمين.

قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»، هذا إذا كان الشرك شركاً أكبر. وقال ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر».

---

(١) الجامع الفريد ص (٤٣٩).

وأما الأصغر منه فهو محبط لما خالطه من العمل؛ أو بني عليه، وصاحبه مستحق للوعيد، وإذا مات عليه فهو بين قائل إنه داخل تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه؛ وبين قائل بأنه معذب لا محالة، وإن كان لا يخلد في النار، ومن قائل إنه يغفر له؛ وبين قائل إنه لا يغفر له.

وكان السلف الصالح يستدلون بكل دليل في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر داخل في مسمى أكبر الكبائر. فهو أكبر من كبائر الذنوب وأعظم منها. وقد حكم الله على الشرك كله بأنه ظلم عظيم كما في الآية الآنفة الذكر، كما أن الشرك الأصغر فيه من الخفاء ما لا يوجد في الأكبر، فهو أدق مدخلاً، وأصعب معرفة. وأما الأكبر فهو أوضح معنى، وأظهر حالاً، وإن كان قد يخفى بعض مظاهره على بعض الناس الذين لا رسوخ لهم في العلم؛ لذا قال عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» ولأن منه خفياً يصعب إدراكه إلا بمراقبة تامة لما يجري من إرادات في القلب، كما أنه مما تتساهل به بعض النفوس، وقد يجري على الألسن بغير إرادة قلبية من المتكلم؛ ولذا كان الشرك بنوعيه خطراً على المعتقد أيما خطورة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ قال بعض أهل العلم: (إن ذلك في الشرك الأصغر). (كما أن البراءة منه إحدى جناحي التوحيد كما تقدم وإذا عرف خطر الشرك وعظم أمره فما هو الشرك).

تعريف الشرك:

للشرك معنيان:

أحدهما: معنى عام: وهو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه. والمراد بالتسوية هنا مطلق الشركة سواء كان الله سبحانه مماثلاً لغيره فيها أو هو زائد عليه فيها.

وبناء على هذا المعنى فالشرك ثلاثة أنواع:

أولاً: شرك في الربوبية:

وهو التسوية في شيء من خصائصها، أو نسبتها إلى غيره كالخلق والرزق والإحياء والإماتة وتسمى عرفاً: تمثيلاً أو تعطيلاً.

ثانياً: الشرك في الألوهية:

وهو التسوية في شيء من خصائصها، كالصلاة والصيام والذبح والنذر ونحو ذلك. هو الذي يعرف بالشرك إذا أطلق.

ثالثاً: شرك في الأسماء والصفات:

وهو التسوية بين الله والخلق في شيء منها ويسمى عرفاً: تمثيلاً.

والثاني: من معاني الشرك هو: اتخاذ غير الله مع الله إلهاً معبوداً مطاعاً، وهو المتبادر من كلمة شرك إذا أطلق في القرآن والسنة وكلام السلف. فمن اتخذ إلهاً يعبده أو يطيعه من دون الله فهو المشرك في لغة الوحي والأثر. قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقال جل شأنه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فمن صرف أي نوع من العبادة لغير الله بأن عبده دون الله، أو مع الله، فهو مشرك. وكذلك من اعتقد أن هناك من حقه أن يسن الشرع غيره فهو مشرك بالله فصارت حقيقة الشرك إذا أطلقت شملت أمر العبادة والتشريع، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾. وقال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾. وقال جل شأنه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وقال جل جلاله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فجعل الشرع له كما أن الخلق له، فهو الذي يشرع لخلقه

لأنه مالكهم وأما غيره فلا حق له في ذلك لأن الخلق ليس خلقه ولذا فالأمر ليس أمره.

أنواع الشرك[1]:

للشرك ثلاثة أنواع[2]:

الأول: الشرك الأكبر.

الثاني: الشرك الأصغر.

الثالث: الشرك الخفي.

فالشرك الأكبر: هو أن يجعل لله نداً يعبده كعبادته، ويطيعه كطاعته. فالمراد به هنا: الشرك بمعناه الخاص.

والشرك الأصغر: هو تسوية غير الله بالله في هيئة العمل، أو أقوال اللسان. فالشرك في هيئة العمل هو الرياء. والشرك في أقوال اللسان: هو الألفاظ التي فيها معنى التسوية بين الله وغيره، كقوله: ما شاء الله وشئت. وقوله: اللهم اغفر لي إن شئت. وقوله: عبد الحارث، ونحو ذلك.

وأما الشرك الخفي: هو ما خفي من حقائق إرادة القلوب، وأقوال اللسان، مما فيه تسوية بين الله وخلقه، كما قال ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تهوي به في جهنم سبعين خريفاً». وقال عليه الصلاة والسلام: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسئل عنه؟ قال: «الرياء». وقال الله تعالى مخبراً عن نبيه إبراهيم أنه

---

(١) من العلماء من يقسم الشرك إلى نوعين:

النوع الأول: شرك ظاهر، وهو نوعان: شرك أكبر وشرك أصغر.

النوع الثاني: شرك خفي، وهو نوعان: شرك أكبر وشرك أصغر. انظر تصحيح المقاصد (١/ ٢٦٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٣٨). الجامع الفريد ص (٣٤٠).

قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ ويمكن أن يُجعل الشركُ الخفيُ نوعاً من الشرك الأصغر. فيكون الشرك حينئذ نوعين: شرك أكبر: ويكون في عقائد القلوب، وشرك أصغر: ويكون في هيئة الأفعال، وأقوال اللسان، والإرادات الخفية.

والظاهر من تقسيم أهل العلم الشرك إلى ثلاثة أنواع، وجعل الشرك الخفي منها: أن الشرك الخفي قد يكون من الشرك الأكبر، وقد يكون من الشرك الأصغر. وعليه فيجب الحذر منه لكثرة الاشتباه فيه، فيظن ما هو أكبر منه أصغر، والعكس صحيح.

وعليه فيكون: هو ما تردد بين أن يكون من الشرك الأكبر، أو الشرك الأصغر، ولعل هذا التعريف هو الراجح عندي. وقد قال عنه عليه الصلاة والسلام: «إنه أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة السوداء الصماء». وذلك لخفاء مأخذه، ودقة أمره، وصعوبة معرفته. فيكون مجاله الأمر المشتبه الذي لا يعرفه إلا الحذاق من أهل العلم، وإن كان قد يخفى على غيرهم ممن لم يكمل نظره، ويَسْتَوِ علمه، وضَعُف فهمه في أدلة الكتاب والسنة.

ومما تقدم يتبين لنا الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر. ويمكن استفادة ذلك مما سبق، وإجماله فيما يلي[1]:

أولاً: أن الشرك الأكبر مخرج للعبد من ملة الإسلام، بعكس الأمر بالنسبة للشرك الأصغر.

ثانياً: أن الشرك الأكبر محبط للأعمال كلها، جملة وتفصيلاً. وأما الشرك الأصغر فلا يبطل إلا ما خالط أصله، أو غلب على العمل.

ثالثاً: الشرك الأكبر موجب للخلود في النار. وأما الشرك الأصغر فلا يوجب الخلود. فهو إما موجب لدخول النار، أو هو تحت

---

(١) انظر الكواشف الجلية ص (٣٢٢).

المشيئة، إما أن يعفو الله عنه، أو يغفر له فلا يدخل النار.

رابعاً: أن الشرك الأكبر يُحل النفوس والأموال. بعكس الشرك الأصغر فإن صاحبه مسلم، مؤمن ناقص الإيمان، فاسق من حيث الحكم الديني.

خامساً: يجتمعان في استحقاق صاحبهما للوعيد. وأنهما من أكبر الكبائر من الذنوب.

سادساً: أن الشرك الأكبر لا يغفر. بعكس الشرك الأصغر فإنه يغفر.

أنواع الشرك الأكبر[1]:

للشرك الأكبر ستة أنواع، وهي كالتالي:

الأول: شرك الدعوة أي الدعاء:

وهو دعاء غير الله كدعاء الله: مسألة وعبادة[2]. فإن كان المقصود بالدعاء طلب النفع أو دفع الضر، سمي: دعاء مسألة. وإن كان المقصود الذل والخضوع والانكسار بين يدي الله، يسمى: دعاء عبادة. وسواء كان الدعاء دعاء عبادة، أو دعاء مسألة فلا يجوز التوجه به لغير الله، لأنهما لا يعبد بهما غير الله سبحانه، وصرفهما أو أحدهما لغير الله شرك في الدعاء، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

والمراد بالعبادة في الآية: الدعاء، بدليل أولها، وهو قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ﴾ ثم بين جزاء من يستكبر عن

---

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ٣٣٨).

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم ص (٤١١).

دعاء الله إما بأن يدعو غيره، أو بترك دعائه جملة وتفصيلاً، كبراً وتيهاً وعجباً، وإن لم يدع غيره. وقال سبحانه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فأمر الناس بدعائه. فإذا امتثل العبد هذا الأمر كان عابداً لله. إذ لا معنى للعبادة إلا امتثال الأوامر واجتناب النواهي، فإذا خالف هذا الأمر ودعا غير الله، كان عابداً لذلك المدعو؛ لأن سواه برب العالمين، وصرف له ما هو عبادة لله. والله يقول عن أهل النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ فكل ما اقتضى تسوية غير الله بالله في العبادة والطاعة، فهو شرك بالله. وهو من الشرك الأكبر. فصار الدعاء بنوعيه عبادة لله.

وقد جاء الدعاء في كتاب الله بمعنى العبادة والمسألة كما في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وعليه فلا يجوز أن يطلب من مخلوق ميت، أو غائب قضاء حاجة، أو تفريج كربة. ومحل هذا فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل.

والدعاء هنا أعم من أن يكون طلب إزالة المكروب، أو الاستغاثة، أو طلب المحبوب.

وشرك كون الدعاء لغير الله شركاً ثلاثة أمور[1]:

أحدها: أن يكون النداء حقيقياً لا مجازياً.

الثاني: أن يكون فيما لا يقدر عليه إلا الله.

الثالث: أن يكون غائباً عن المسؤول، سواء كان غياباً مكانياً، أو زمانياً، أو ميتاً. والدعاء والحالة هذه، غير مقدور عليه. فإن الغائب والميت لا يدرون بشيء من دعاء الداعين، وسؤال السائلين.

وقد جاءك الأدلة من الكتاب والسنة في بيان وجوب صرف الدعاء له وحده سبحانه لا شريك له، ومن ذلك قوله سبحانه عن

---

(١) صيانة الإنسان ص (٣٧٣).

خليله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾. وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

وقد استدل سبحانه بحال الاضطرار الذي يتصرف فيه الإنسان بسجيته، وتظهر آثار فطرته، ولا تكذبه عواطفه، على أن الله هو الذي يجب أن يدعى دون سواه، فقال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وفي هذه الآية أن الدعاء دين، والدين لا بد أن يكون كله لله، كما قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾. وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. وقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

وهذا النوع من الشرك أعظم شرك المشركين وأكثره فيهم، كما قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ فدلت هذه الآية على اقتران دعاء المؤمنين بالرغبة والرهبة، والطمع والخوف. وهو عام في دعاء المسألة ودعاء العبادة. والفرق بين نوعي الدعاء أن يقال:

الأول: دعاء المسألة طلب نفع ودفع ضر، بعكس العبادة فذل وخضوع تام.

الثاني: أن دعاء المسألة من قبيل الربوبية، ودعاء العبادة من قبيل توحيد الألوهية.

الثالث: دعاء المسألة لا يختص بالمؤمنين. وأما دعاء العبادة فيختص بالمؤمنين.

الرابع: دعاء المسألة داخل في الرزق العام، فما من مخلوق إلا كتب رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، وأما دعاء العبادة ليس كذلك.

الخامس: دعاء المسألة يدخل في الحقائق الكونية. ودعاء العبادة في الحقائق الشرعية.

السادس: يجتمع الدعاءان في حق المؤمن، فهو يدعو الله دعاء مسألة ودعاء عبادة.

السابع: يجتمعان بأن دعاء العبادة والمسألة إذا توجه العبد بهما إلى الله، فلا بد وأن يكونا مقترنين بالرغبة والرهبة له سبحانه» كما قال عز وجل: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

والدعاء من أفضل العبادات وأجل الطاعات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وقال ﷺ: «الدعاء هو العبادة». وقال عليه الصلاة والسلام: «سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يسأل». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب الملحين في الدعاء».

لذا كان من دعا غير الله مشركاً. قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ فجعل من دعا مع الله غيره متخذاً له إلهاً مع الله، وحكم عليه بالكفر: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾. فجعل من دعا غير الله متخذاً مع الله نداً: وهو الشريك والظهير والمساوي، وحكم عليه بالكفر ودخول النار.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ...﴾ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ فبين الله تعالى أنه يُحرِّم دعاء غير الله. وبين أن الذي يُدعى هو المالك للأمر المتصرف فيه. وهو ليس لأحد إلا الله. وأن تلك المعبودات لا تسمع الدعاء، فضلاً عن إجابتها للداعي. ولو قُدِّر أنها سمعت تنزلاً لما استجابت له، لأنها لا تملك نفعه ولا ضره ولا تقدر على شيء من ذلك.

النوع الثاني من الشرك: شرك النية والإرادة والقصد:

هو أن ينوي ويريد ويقصد العبد بعمله جملة وتفصيلاً غير الله. وهو الشرك في الاعتقاد. ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾. وقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ فبين سبحانه أن من كان غرضه الدنيا لا غير لا يريد إلا إياها، ولا يحب إلا من أجلها ولا يبغض إلا من أجلها، ولا يوالي إلا من أجلها، ولا يعادي إلا من أجلها، فليس له من الدنيا إلا ما قُدِّر له، وهو في الآخرة من أهل النار. وما كان من الأعمال الحسنة التي أراد بها تحصيل الدنيا باطلة لا قيمة لها، لأنه كما قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» فلما كانت أعماله كلها للدنيا لم تنفعه في الآخرة، إذ كل عمل لا يكون لله لا خير فيه البتة، ولذا فإن المؤمن دوماً يلحظ في أعماله ابتغاء رضا ربه وثوابه وجنته والنجاة من النار. قال تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ وأما دخول بعض النيات الفاسدة، والمقاصد الرديئة على إرادة العبد في بعض الأعمال، فإن ذلك لا يخرجه عن ملة الإسلام.

وهذا الشرك هو الشرك في العبادة. وذلك بأن يعمل العمل لا يريد به وجه الله، بل يريد به غيره من صنم أو وثن أو قبر أو ميت ونحو ذلك. وهو أعظم أنواع الشرك، وهو شرك الجاهلية الأولى، كما

قال سبحانه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فهم صرفوا أنواع العبادات لأصنامهم وأوثانهم، مدعين أنهم فعلوا ما فعلوه رغبة في القربى من الله، فتقربوا إلى الله بما لا يحبه ولا يرضاه، وبما لا يشرعه طريقاً لعبادته.

النوع الثالث: شرك الطاعة:

وهو مساواة غير الله بالله في التشريع والحكم. إذ الحكم حقاً هو حق من حقوقه تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾. وقال: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾. وقال جل شأنه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

وقل جل شأنه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ وقد فسرها النبي ﷺ بطاعتهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال. فمن ادعى أن لأحد حق التشريع، فقد كفر بما أنزل من عند الله. قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فلا أمر ولا نهي إلا لله وحده، كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

والأمر: هو الأمر الشرعي الشامل لطلب الفعل والترك. فطلب الفعل: هو الأمر بمعناه الاصطلاحي. وطلب الترك: هو النهي اصطلاحاً. وقد أخبر تعالى بأنه مالكه دون غيره. وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿أَلَا لَهُ﴾ وعليه فلا يجوز نسبته لغيره. ومن نسبه لغيره كان مشركاً بالله الشرك الأكبر المخرج من ملة الإسلام. وكذلك الحكم نفسه لو ادعاه لنفسه. [و] كما أنه تعالى هو خالق الخلق، وموجدهم من العدم، ومربيهم بالنعم. فهو صاحب الحق في أن يحكم في جميع تصرفاتهم. والصانع أعلم بما يصلح صنعته. وأولى من سن شرعاً لهم. أما غيره فإنه لم يخلق، ولم يوجد، ولم ينعم، وهو أجهل من أن يعرف خفايا نفسه، وما يصلحها، فضلاً عن أن يصلح الخلق

جميعاً. كما أنه يتأثر بكل ما يرد على ذهنه أو عقله من شبهة أو شهوة. وما من واحد من بني آدم إلا وهذه حاله. وتعيين من يشرع لهم منهم تحكم قائم على جهل، بل لا يقوم على برهان صحيح وحجة قاضية. فلا شرع إلا لله، ولا حكم لسواه. قال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فجعل الحكم بغير ما أنزل حكماً بأحكام الجاهلية. وأوضح أنه لا أفضل ولا أجل من حكمه لمن آمن به.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ فسمى من يحكم بغير ما أنزل الله طاغوتاً: وهو ما عبد من دون الله من معبود أو متبوع أو مطاع. وبين أنه أمرهم أن يكفروا بهذا الطاغوت. وذلك بأن يؤمنوا أنه لا حكم ولا حاكم إلا حكم الله ورسوله. وبين أن التحاكم إلى الطاغوت هو مما يحبه الشيطان ويرضاه، وأنه من الضلال العظيم.

وهذه الآية نزلت في رجلين اختصما. فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ. وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله. وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي نتحاكم إلى محمد عرف أنه لا يأخذ الرشوة، ولا يميل في الحكم. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، ويميلون في الحكم، فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت الآية» ولا تنافي بين الحادثتين. إذ المراد: نزلت الآية في حكم مثل هذه الحوادث.

ووجه دلالة هاتين الحادثتين أن الحكم لا يكون إلا بالكتاب والسنة، وأن كل حكم خالفهما فهو باطل في واقع الأمر وحقيقته. فلا يستحل بناءً عليه المحكوم به.

النوع الرابع: شرك المحبة:

وذلك بأن يحب مع الله غيره كمحبته لله أو أشد أو أقل، محبة مستلزمة لغاية الذل والخضوع كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ والمعنى: أن من المشركين من يجعل لله نظيراً ومثيلاً يحبه كمحبته لله أو أكثر من الله بحسب اختلاف المشركين في درجة حبهم لما يعبدونه، ولكن المؤمنين محبتهم لله أشد من محبة المشركين لما يعبدونه، أو أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة المشركين لله؛ لأن محبة المشركين له فيها شريك وأما محبة المؤمنين فهي محبة خالصة لله.

والمراد هنا بالمحبة: هي غاية الحب ومنتهاه وكماله وأعلاه وأرفعه قدراً، قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»، ولذا فإن محبة المشركين لله باطلة لا قيمة لها، ولا يترتب عليها شيء، أما محبة المؤمنين لربهم فهو سبحانه يبادلهم محبة بمحبة وإن كانت محبته أعلى قدراً من محبتهم إياه كما قال سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وهذه المحبة غير المحبة الطبيعية كمحبة الولد لوالده.

ومما يدخل في محبة الله: محبة ما يحبه الله من الأقوال والأفعال والاعتقادات والذوات والصفات كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾. وقال ﷺ: «ثلاث من وجدهن وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار». رواه البخاري، وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» متفق عليه، وروى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله،

وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثر صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» اهـ.

فالذي يجمع أنواع هذه المحبة: هي محبة الله، إذ هي سبب أنوع المحبة الدينية الأخرى وأساس البناء لها، وكل محبة ليست مبنية عليها فهي محبة لا فائدة فيها كما قال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾، وقال سبحانه: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال ابن عباس: المودة. أي: المحبة، فإن عاقبة المحبة الدنيوية وهي التي من أجل أغراض الدنيا العداوة والبغضاء في الآخرة. وأما المحبة الدينية فعاقبتها المحبة في الآخرة والاجتماع في ثوابها في الجنة، فهي المحبة النافعة فقط.

ومن هنا كان الواجب على عموم الموحدين المؤمنين أن تكون علاقتهم مبنية على محبة الله وأن تكون هذه المحبة هي الأساس في النيات والمقاصد والأعمال والأقوال.

وهذا الأمر يوجب عليهم الحرص على العلم والهدى الذي أنزله الله؛ لأنه الطريق إلى معرفة ما يحبه الله فيفعلوه، ومعرفة ما يبغضه الله فيتركوه. ومن لوازم هذه المحبة الذل والخضوع التام لله ورسوله، لأنه لا يأمر إلا بما أمر الله به، فإن المحبة بلا ذل وخضوع لله تؤدي إلى الانحراف في فهم الشرع، وذلك بالخلط بين ما يأمر الله به وبين ما ينهى عنه، وبين ما يحبه وبين ما يبغضه، إذ تكون الطاعة عنده هي موافقة القدر، والقدر يشمل وقوع المحبوب والمبغوض كما قال القائل:

فصرت منفعلا لما يختاره ... فكل ما أفعله طاعات

النوع الخامس: الشرك في الخوف:

والخوف هو الخشية من توقع المكروه سواء كان متيقناً أو

مظنوناً. والمراد به هنا غايته ومنتهاه وكماله، وهو لا يكون إلا لله وحده، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾. فمن جعله لغير الله، أو جعله لله وغيره، فقد أشرك بالله في عبادة الخوف، ووجه كونه عبادة أنه مأمور به، وكل ما أمر الله فهو عبادة لله، فالخوف عبادة لله. والواجب في هذا الخوف ليكون عبادة صحيحة ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون غاية ما يكون الخوف.

الثاني: أن لا يوصل إلى سوء الظن بالله، أو القنوط من رحمة الله؛ فإن كثيراً من الناس إذا غلبه الخوف إما أن ييأس من رحمة الله لأنه لا يشاهد إلا الذنب والعقوبة دون الرحمة والمثوبة، فيسيء الظن بالله؛ وإما أن يغلب عليه الخوف فيحكم على نفسه بالعذاب فلا يبالي بالذنب بعد ذلك.

الثالث: أن يقترن خوفه بذله لله، وخضوعه له، وانكساره بين يديه، فإن لم يقترن بذلك كان سوء ظن بالله، وعدم ثقة بوعده للتائبين. ودعوى الخوف بلا ذل وخضوع هو دين الكذابين الذين ادعوا الخوف من الله ولم يذعنوا لأحكام الله ولما أمر به ونهى عنه.

هذا والخوف ثلاثة أنواع وهي:

أولاً: الخوف الشركي وهو نوعان:

أحدهما: الخوف السري (الاعتقادي):

كالخوف من الأصنام والأوثان، وقد خوف المشركون رسول الله ﷺ من أصنامهم وأوثانهم فقال سبحانه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾. كما أن ذلك حال المنافقين في دَبّ الرعب والخوف بين المؤمنين ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾. وهذا النوع من الشرك

محله القلب؛ ولذا سمي اعتقادياً، وهو شرك أكبر.

ثانيهما: الخوف العملي:

وهو الخوف من الناس المؤدي إلى ترك الواجب، أو عمل المحرم، فهو ينافي كمال التوحيد، فهو شرك أصغر. ويدل عليه قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، وقوله: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت المنكر أن تغيره؟ فيقول: رب خشيت الناس. فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى». رواه أحمد وغيره.

ثانياً: الخوف الطبيعي:

كالخوف مما يخاف منه طبعاً، كالخوف من الأسد، أو العدو المباغت، ونحو ذلك؛ فإنه خوف جائز مباح. وقد وصف الله به رسوله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فقال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

ثالثاً: الخوف التوحيدي الواجب:

وهو الخوف من الله غاية الخوف ومنتهاه، وضد هذا الخوف هو الخوف الشركي الآنف الذكر.

النوع السادس: الشرك في التوكل:

والتوكل هو تفويض الأمر إلى الله، والاعتماد عليه سبحانه في تحصيل المطالب. والتوكل بهذا المعنى لا يجوز أن يكون لغير الله وحده؛ لأنه عبادة، فقد أمر الله المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾. وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾. وقال جل شأنه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وكل مأمور به فهو عبادة الله، فالتوكل عبادة لله ومن صرف هذا التوكل لغير الله

بأن يتوكل على غيره، أو يتوكل على الله وغيره، فهو مشرك بالله الشرك الأكبر.

هذا والتوكل عمل قلبي، وهو على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: التوكل الشركي (الاعتقادي):

وهو الاعتماد بالقلب على غير الله في جلب المنافع ودفع المضار، كالتوكل على الصنم والوثن، أو الإنس والجن وغيرها. وهو على نوعين:

أحدهما: الاعتماد بالقلب على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهو شرك أكبر.

ثانيهما: الاعتماد بالقلب على الأحياء الحاضرين القادرين فيما يقدرون عليه مما أقدرهم الله من جلب نفع أو دفع ضر فهو شرك أصغر، وقد يطلق عليه: التوكل على الأسباب الظاهرة.

القسم الثاني: التوكل في تصريف بعض أمور الدنيا:

كأن يوكل إنساناً عنه في قضاء بعض مصالحه الدينية والدنيوية: كالوكالة في الحج، أو البيع والشراء، فهذا جائز.

القسم الثالث: التوكل التوحيدي:

وهو التوكل الواجب، وهو الذي يكون باعتماد القلب على الله، وتفويض الأمور لله جل شأنه، وضده التوكل الشركي.

النوع السابع: شرك الشفاعة[1]:

والشفاعة مشتقة من الشفع لأن كل [واحد] من الشافع والمشفوع

---

(١) انظر توضيح المقاصد وتصحيح المقاصد (٢/ ٢٧٠).

يشفع صاحبه، فكل واحد منهما شريك للآخر في الشفاعة. وشرعاً: هي التوسط للغير في جلب منفعة ودفع مضرة،

وهي قسمان:

١ ـ شرعية، وهي نوعان:

(أ) دنيوية: وهي التوسط في رفع ظلم أو إيصال حق، قال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا» متفق عليه.

(ب) أخروية: وهي التوسط في جلب نفع أو دفع شر فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذه حق خالص لله فلا يطلب من غيره، وهي الشفاعة المثبتة، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ ويشترط لحصولها شرطان هما:

١ ـ رضى الله عن الشافع والمشفوع كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾.

٢ ـ إذنه للشافع كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ وقال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، والله لا يرضى إلا التوحيد وأهله الموحدين.

٢ ـ شفاعة غير شرعية، وهي نوعان:

(أ) دنيوية: وهي التوسط في حصول ظلم أو تضييع حق، وهي محرمة شرعاً لقوله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» متفق عليه، وللحديث القدسي «إني حرمت الظلم [على نفسي] وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» متفق عليه.

(ب) أخروية: وهي طلب التوسط من الغير في تحصيل ما لا يقدر عليه إلا الله، وهي الشفاعة الشركية المنفية، فهي ما يدعيه المشركون من أن معبوداتهم تشفع لهم، قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبذا يعلم أن الشرك في الشفاعة هو تسوية غير الله بالله في

التوسط في جلب نفع أو دفع ضر لا يقدر عليه إلا الله.

وعلى هذا فإن الشفاعة المنفية لا يملكها ولا يقدر عليها لا صنم ولا إنسان لا نبي ولا ولي ولا ملك ولا أحد من الخلق، والواجب طلبها من الله، فيقول: اللهم لا تحرمني شفاعة رسولك اللهم شفعه في، وأمثال هذه الكلمات، ولا يقال: يا محمد اشفع لي لأن الله أعطاه الشفاعة يوم القيامة، فهو لا يملكها في الدنيا، لأن الله لم يعطه إياها وإن أخبر ﷺ أنه ينالها لكنه لا ينالها حتى يأذن الله، والله لا يأذن إلا يوم القيامة فلا يكون الرسول مالكاً لها في الدنيا ولا في الآخرة، فلا تطلب منه بل تطلب ممن يملكها وهو الله تعالى، وإذا لم يملكها الرسول ﷺ فغيره أولى أن لا يملكها، وبذا يعلم أن لا واسطة بين الله وخلقه في جلب المنافع ودفع المضار التي لا يقدر عليها إلا هو سبحانه وإنما توسط الرسل والأنبياء والدعاء إلى الله توسط في التبليغ والبيان للشريعة كما قال سبحانه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

هذا والفرق بين شفاعة المخلوق عند المخلوق، وشفاعة المخلوق عند الله، أن المشفوع عنده بالنسبة للمخلوقين شريك للشافع والمشفوع له لما بينهم من المصالح المتبادلة، ولأن المنافع بين العباد مشتركة، وأما الرب جل وعلا فلا شريك له، فلا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين، فقبوله لشفاعة الشافع عنده هي محض التفضل والإحسان منه على عبده. وسر الفرق بين الشفاعتين أن شفاعة المخلوق إلى المخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى أذن ولا أمر من المشفوع عنده بل هي بسبب خارجي من المشفوع عنده وقد توافق منه رغبة أو رهبة خاليتين من المعارض فيحصل المقصود وقد يعارضها معارض فيقع الترجيح أو التوقف. والشفاعة عند الخالق جل جلاله امتثالاً لأمره وطاعة له فالرب هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل

والشافع عند المخلوق مستغن عن المشفوع عنده في أكثر أموره وهو في الحقيقة شريكه، لحاجة المشفوع عنده إليه في نصر ومعاونة وغيرهما كما أن الشافع محتاج إلى المشفوع عنده أيضاً في رزق أو نصر أو غيرهما فكل منهما محتاج إلى الآخر[1].

أنواع الشرك الأصغر:

وله أنواع كثيرة يمكن حصرها بحسب محلها فيما يأتي:

أولاً: قولي: وهو ما كان باللسان، كالحلف بغير الله، وقول: «ما شاء الله وشئت»، وقوله: «قاضي القضاة» والتعبيد لغير الله، كعبد النبي وعبد الرسول.

ثانياً: فعلي: كالتطير، وإتيان الكاهن وتصديقه، والاستعانة على كشف السارق ونحوه بالعرافين، ومنه تصديق المنجمين والرمالين وغيرهم من المشعوذين.

ثالثاً: قلبي: كالرياء والسمعة، وإرادة الدنيا ببعض الأعمال.

وكل قسم من أنواع الشرك الأصغر ممكن أن ينقلب إلى شرك أكبر، وذلك إذا صحبه اعتقاد قلبي، وهو تعظيم غير الله كتعظيمه، أو كان في أصل الإيمان، أو كثر حتى غلب على عمل العبد.

فالأول: كالحلف بغير الله معظماً له كتعظيم الله.

والثاني: كالمراءاة بأصل الإيمان، أو أن يغلب الرياء على أعماله، أو يغلب عليها إرادة الدنيا بحيث لا يريد بها وجه الله. والعمل بهذا الاعتبار الأخير على أربعة أنواع:

الأول: أن يكون قصده بالعمل هو الجزاء عليه في الدنيا من حفظه وتنميته وتكثيره، ولا هَمَّ له، ولا طلب للآخرة. فهذا يعطى نصيبه في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب، وهو من الشرك الأكبر.

---

(١) معارج الألباب في مناهج الحق والصواب ص(١٣٠، ١٣١).

الثاني: أن يقصد بعمله الناس، ولا يريد به وجه الله وثوابه وتجنب عقابه. فهذا هو الرياء بالأعمال، والسمعة بالأقوال، وهو شرك أصغر إذا لم يكثر ولم يكن في أصل الإيمان، فإن كان كان شركاً أكبر.

الثالث: أن يقصد بالعمل الصالح المال، كأن يحج لمال يأخذه أو لزوجة يريدها، أو يجاهد من أجل الغنيمة، وكمن يتعلم من أجل المنصب المرموق أو الرئاسة، أو يحفظ القرآن من أجل أن يعين إماماً لمسجد، ونحو ذلك. وهو من الشرك الأصغر.

الرابع: أن يكون العمل الصالح مخلصاً لله فيه لكنه قد وقع فيما يكفر كفراً أكبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فهذا لا ينفعه عمله فقد كفر، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾. وقال جل شأنه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

فسبب فساد الأعمال هو وجود ضد الإيمان والتوحيد، وهو الكفر والشرك الأكبران، والأعمال ركن الإيمان والتوحيد، فلا إيمان ولا توحيد إلا بعمل خالص موافق لما جاء به الرسول ﷺ.

تعريف الخوارج

الخوارج: هم الذين يُكَفِّرون بالمعاصي، ويَخْرُجون على أئمة المسلمين وجماعتهم.

ويشمل ذلك: الخوارج الأولين (المحكّمة الحرورية)، ومن تفرع عنهم من الأزارقة والصفرية والنجدات، (وهذه الثلاث قد انقرضت)، والأباضية (وهم باقون إلى اليوم).

كما يشمل اسم الخوارج كل من أخذ بأصولهم وسلك سبيلهم، كجماعات التكفير والهجرة في هذا العصر ونحوهم، وعلى هذا فإن الخوارج قد يخرجون في كل زمان، وسيظهرون في آخر الزمان، وكما أخبر النبي ﷺ عن الخوارج الأولين، فقد أخبر ﷺ كذلك عن المتأخرين، وأنهم يخرجون في آخر الزمان، قال ﷺ: (سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة)[1].

❑❑❑

(١) صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب ٦، الحديث (٦٩٣٠)؛ فتح الباري ١٢/ ٢٨٣.

Scanned by CamScanner

ألقاب الخوارج

للخوارج ألقاب كثيرة، منها:

١ــ الخــوارج:

سموا بذلك لأن النبـي ﷺ وصفهم بأنهم (يخرجون على حين فرقة من المسلمين)، ولأنهم يخرجون على أئمة المسلمين، وعلى جماعتهم بالاعتقاد والسيف، وهذا وصف عام لكل من سلك سبيلهم إلى يوم القيامة.

٢ ــ المحكِّمة:

لأنهم فارقوا علياً وجماعة المسلمين بسبب مسألة التحكيم، حينما زعموا أن علياً حكَّم الرجال وقالوا: لا حكم إلاَّ لله، وقد كفَّروا علياً والحكمين، ومن قال بالتحكيم ورضي به، وهذا اسم لجماعة الخوارج الأولين.

٣ ــ الحـروريـة:

وهم الذين خرجوا على علي وجماعة الصحابة، لأنهم حين خرجوا انحازوا إلى مكان يقال له حروراء بالعراق، وهذا الاسم كسابقه.

٤ ــ أهل النهروان:

نسبة إلى المكان الذي قاتلهم فيه علي، وهم الحرورية المحكمة.

٥ ــ الشـراة:

لأنهم زعموا أنهم يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله في قتالهم المسلمين، وقد أطلق على فئات من الخوارج الأولين، ولا يزال الخوارج المعاصرون (الأباضية) يرون هذا الوصف يمكن تحقيقه إذا توافرت شروطه[1]، ويعدونه مسلكاً من مسالك الدين.

٦ ــ المـارقـة:

لأن النبـي ﷺ سماهم (مارقة)، ووصفهم بأنهم (يمرقون من الدين).

٧ ــ المـكفِّـرة:

لأنهم يكفِّرون بالكبائر، ويكفِّرون من خالفهم من المسلمين، وهذا وصف لكل من نهج هذا النهج في كل زمان.

٨ ــ السبـئيـة:

لأن منشأهم من الفتنة التي أوقدها ابن سبأ اليهودي، وهذا وصف لأصول الخوارج الأولين ورؤوسهم.

٩ ــ النـاصبـة:

لأنهم ناصبوا علياً ــ رضي الله عنه ــ وآله العداء، وصرحوا ببغضهم.

❑❑❑

(١) انظر من كتبهم: الجامع الصغير لأطفيش ١/ ١١٠، ١١١، والإباضية في موكب التاريخ ــ الحلقة الأولى ــ ٩٣ ــ ٩٦، ومقدمة أجوبة ابن فرحون: ١٠ ــ ١٢، والدليل والبرهان للوارجلاني ٣/ ١٥٣.

مقالة الخوارج
أول مقالة فرقت بين الأمة

يدور أول نزاع أحدث المفارقة والافتراق والخروج على جماعة المسلمين وإمامهم على مسألتين تجتمعان في أصل واحد هو: «التكفير بالذنوب ولوازمه»، أما المسألتان فهما:

المسألة الأولى: التَحْكيمُ والحُكْم، فإنه حينما اتفق المسلمون على تحكيم الحكمين: أبو موسى من قبل علي ــ رضي الله عنهما ــ، وعمرو بن العاص من قبل معاوية ــ رضي الله عنهما ــ اعترضت السبئية الخوارج، وكان أول من أعلن ذلك كما يقال عروة بن جرير، حيث قال: أتحكّمون في دين الله الرجال؟ ثم تلقف هذه الكلمة طوائف من بعض القراء الجهلة والأعراب وقتلة عثمان وغيرهم من أصحاب علي، وقالوا: «لا حكم إلاَّ لله»، فكان هذا شعارهم الذي فارقوا به الإمام وجماعة المسلمين، ونتجت عن هذه المقولة مقولة أخرى هي التكفير بالمعاصي، وهي:

المسألة الثانية: التكفير، تكفير علي ومعاوية والحكمين، ومن رضي بحكمهما، أخذاً بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٥٧]، [سورة يوسف، الآية: ٤٠]، ورتبوا على ذلك جميع لوازم الكفر، والتي منها أن علياً حين حكّم الرجال لا إمامة له، فاعتقدوا أنهم في حل من إمامته وبيعته، وأنه يجب عليهم أن يؤمّروا عليهم أميراً للمؤمنين ــ يعنون أنفسهم «أي الخوارج» ــ دون بقية المسلمين الذين صاروا في رأيهم كفاراً ما لم يلحقوا بهم، وأن كل من حكّم الرجال أو رضي بالتحكيم فهو كافر.

فكان أن بايعوا «عبد الله بن وهب الراسبي» في ١٠/ ١٠/ ٣٧هـ، وهذا هو تاريخ أول افتراق فعلي معلن في الأمة[١]، وعليه فإن:

افتراق الخوارج هو أول افتراق في تاريخ المسلمين:

كل الحوادث والنزاعات والاختلافات التي حصلت في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ــ رضي الله عنهم ــ لم ينتج عنها افتراق ولا فرق، وكان كل نزاع ينتهي إما بالإجماع، أو الأخذ بقول الأغلب، أو العمل بما عليه الإمام أو الأكابر، أو كل يذهب إلى ما أدى إليه اجتهاده، ويعذر كل فريق من المختلفين الآخر، ولم يصل الأمر إلى الافتراق ولا الخروج على جماعة المسلمين وأئمتهم.

وحتى أولئك الذين قدموا المدينة ناقمين على عثمان ــ رضي الله عنه ــ كانوا أول أمرهم لم يُظهروا المنازعة ولا الفرقة، ولم يطالبوا لأنفسهم ولا لأحد بعينه بالإمامة، إنما كانوا يطالبون بأن يخلع الإمام نفسه، أو يخلعه أهل الحل والعقد، ويختار المسلمون لهم إماماً يرضونه، وكانوا يزعمون أنهم إنما يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ولما قتل عثمان ــ رضي الله عنه ــ وحصلت الفتنة، وصارت وقعة الجمل وصفين، برزت من خلال ذلك أول فُرْقة عن جماعة المسلمين وإمامهم، وكانت بظهور (الخوارج والشيعة)، وذلك عام (٣٧) للهجرة وما بعدها، وكلا الفرقتين خرجتا من خلال الفتنة، وكلاهما من بذور (السبئية) رغم ما بدا بينهما من تفاوت في الأصول والمقولات والمواقف.

---

(١) راجع الفتاوى ١٩/ ٨٩ ــ ٩٢؛ وتاريخ الطبري ٣/ ٧٩ ــ ١١٣؛ والكامل لابن الأثير ٣/ ١٦٣ وما بعدها؛ والبداية والنهاية لابن كثير ٧/ ٢٧٨، ٢٧٩؛ وتلبيس إبليس ٩١، ٩٢؛ ودراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين (الخوارج والشيعة) للدكتور أحمد محمد جلي ٥٥، ٥٦.

قال شيخ الإسلام: «وهاتان الطائفتان ــ الخوارج والشيعة ــ حدثوا بعد مقتل عثمان، وكان المسلمون في خلافة أبـي بكر وعمر وصدراً من خلافة عثمان في السنة الأولى من ولايته، متفقين لا تنازع بينهم، ثم حدث في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتل عثمان، ولما اقتتل المسلمون بصفين، واتفقوا على تحكيم حكمين، خرجت الخوارج على أمير المؤمنين علي بن أبـي طالب وفارقوه، وفارقوا جماعة المسلمين إلى مكان يقال له حروراء»[1].

فصار هؤلاء هم «الخوارج المارقون[2] الذين أمر الرسول ﷺ بقتالهم، قاتلهم علي، واتفق أئمة الدين على قتالهم ــ من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ــ ، ولم يكفّرهم علي وسعد، وغيرهما، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقتلهم علي حتى سفكوا الدماء الحرام، وأغاروا على المسلمين؛ قاتلهم لبغيهم لا لكفرهم، لذا لم يسْب حريمهم، ولم يغنم أموالهم»[3].

ثم بين أنه: إذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك[4].

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «ولهذا كان أول من فارق جماعة المسلمين من أهل البدع، الخوارج المارقون»[5].

---

(١) الفتاوى ١٣/ ٣٢.

(٢) سميت الخوارج المارقة أخذاً من وصف الرسول ﷺ لهم في الحديث الصحيح: «يمرقون من الدين».

(٣) انظر: الفتاوى ٣/ ٢٨٢ بتصرف.

(٤) انظر: الفتاوى ٣/ ٢٨٣.

(٥) انظر: الفتاوى ٣/ ٣٤٩.